مقبول العلوي

زهور فان غوخ

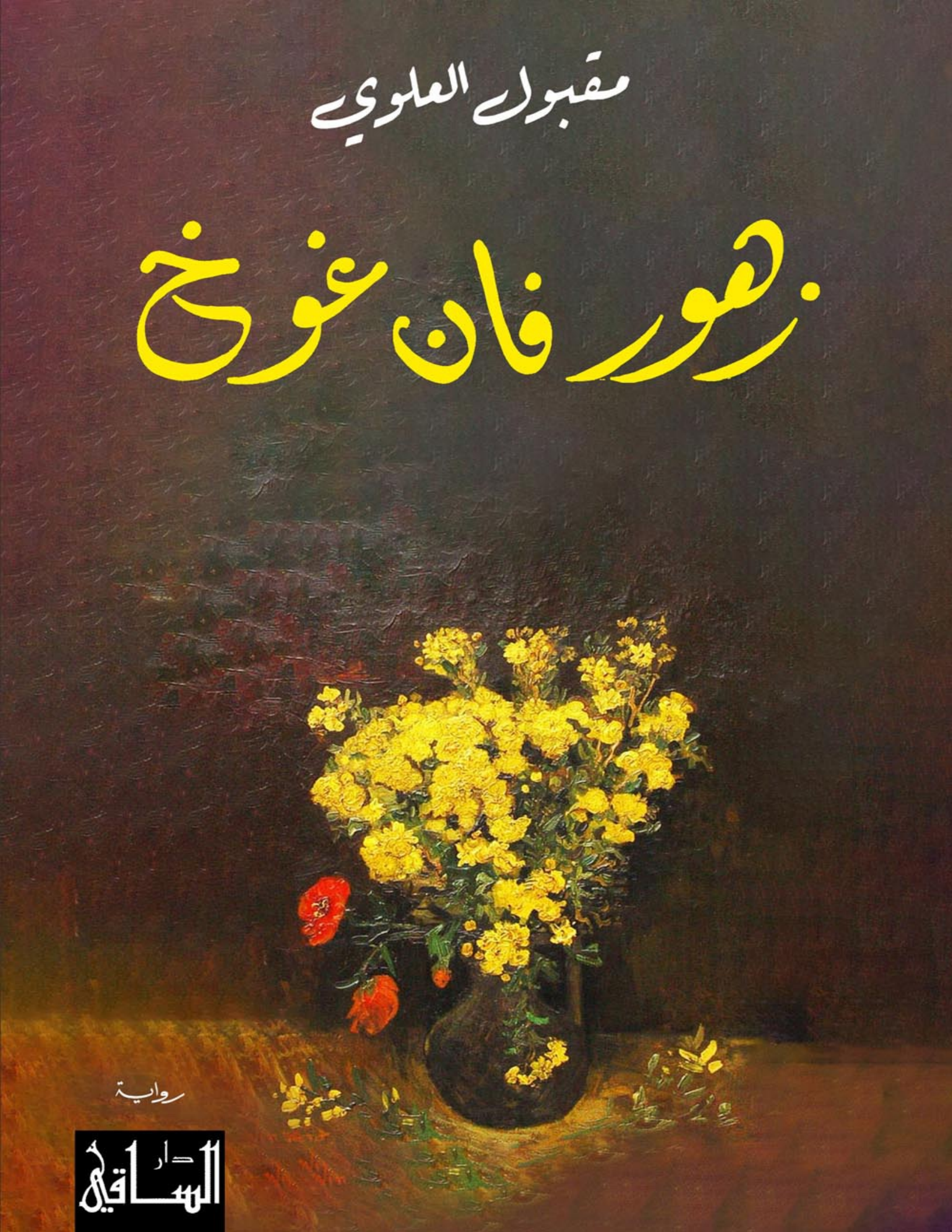

رواية

دار الساقي

زهور فان غوخ

صدر للمؤلف:

- فتنةُ جدَّة رواية، الطبعة الأولى دار رياض الريس، ٢٠١، بيروت، لبنان (القائمة الطويلة لجائزة الرواية العربيَّة "بوكر" ٢٠١١)، الطبعة الثانية دار الساقي، ٢٠١٦.
- سنواتُ الحبِّ والخطيئةِ، رواية، المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنشر، ٢٠١١، عمّانt – بيروت (القائمة القصيرة لجائزة الرواية السعوديَّة ٢٠١٢ الدورة الثانية).
- فتياتُ العالمِ السفليِّ، قصصٌ قصيرةٌ، دار فضاءات للنَّشر والتوزيع ٢٠١٣، عمان، الأردن.
- خرائطُ المدن الغاوية، رواية، دار رياض الريس، ٢، بيروت، لبنان. (الرواية الفائزة بجائزة الرواية السعوديَّة في دورتها الثالثة ٢٠١٦).
- زرياب، رواية، دار الساقي، ٢٠١٤، بيروت، لبنان. (جائزة معرض الرياض الدولي للكتاب في فئة الرواية ٢٠١، القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب ٢٠١٦، أبو ظبي).
- البدويُّ الصغيرُ، رواية، دار الساقي، ٢٠١٦، بيروت، لبنان (جائزة سوق عكاظ، فئة الرواية ٢٠١٦).
- القبطيُّ، مجموعة قصصيَّة، دار الساقي، ٢٠١٦، بيروت، لبنان (جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي،

الدورة السادسة، فئة القصة القصيرة، الخرطوم، السودان، ٢٠١٦).

- **رجلٌ سيئُ السمعةِ، مجموعة قصصية، دار مداد للنشر والتوزيع، ٢٠١٧، دبي، الإمارات العربية المتحدة.**
- **طيف الحلاّج، رواية، دار الساقي، ٢٠١٨، بيروت، لبنان.**

مقبول العلوي

زهور فان غوخ

سِيرةٌ روائيَّةٌ لِلوحة "زهور الخشخاش"

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخةً إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشترِه، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٨

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٨

ISBN-978-614-03-2072-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

تنبيه

أي تطابق بين بعض وقائع وشخوصِ هذه الروايةِ مع شخصيّات وأحداث حقيقية هو مجرّد مصادفة خالية من الغرض والقصد.

مدخل

"تنشرُ الصحفُ العربيَّةُ بينَ حينٍ وآخرِ خبراً عنْ عثورِ مواطنِينَ عربٍ علَى لوحاتٍ عالميَّةٍ شهيرةٍ، لفنانِينَ عالميِّينَ كبارٍ، لكنَّ الغريبَ أنَّ مثلَ هذِه الأخبار تبدأُ عمل ضجَّةٍ كُبرَى أثناءَ نشرِهَا، لكن سرعانَ مَا تتلاشَى هذِه الضجَّةُ بالسرعةِ نفسها التي ظهرتْ بهَا، ويختفِي أيضاً أيُّ أثرٍ لهؤلاءِ الأشخاصِ الذينِ عثرُوا علَى هذِه اللَّوحاتِ، ما يسبِّبُ نوعاً من الغموضِ والتساؤلاتِ حولَهُم".

خبرٌ صحفيٌّ (١)

صحيفة ..... في ١٩/٣/٢٠٠٩:
مصريٌّ يعثرُ مع أحد بائعي "الروبابيكيا" على لوحةٍ فنيَّةٍ للفنانِ العالميِّ رامبرانت.

خبرٌ صحفيٌّ (٢)

صحيفة ..... في يناير ٢٠٠٠:
سعودي يعثر على لوحة من لوحات الفنان الإنكليزي الشهير جون كونيستابل في أحد حراجات مدينة جدة.

خبرٌ صحفيٌّ (٣)

صحيفة ..... نقلاً عن صحيفة ..... في ٢٥/١/٢٠٠٠:
مواطن سعودي يعثر على لوحة نادرة للرسام العالمي فان غوخ في أحد أسواق الخردة في مكة المكرمة.

(١)

مكَّة المكرَّمة، ٢٠/٨/٢٠٠٣

مَا هذَا النهارُ الحارُّ؟

الشمسُ في عرشها البعيد لا ترحمُ أحداً. لا بشراً ولا حجراً. ترسلُ أنفاسها الساخنة غيرَ آبهةٍ بتأفُّف المتأففين، ولا بزفراتِ الحانقين. لكنَّ هذا اليوم لا يشبه ما فات من الأيام السابقة، كأنَّها غاضبةٌ منَّا، تعاقبنا بحرِّها وسمومِها منذُ بزوغها حتَّى قبيل أفولها للمغيب.

ثُمَّ...

جاءَ هاتفه في وقت غير ملائم!

تلقيتُ اتَّصاله الهاتفيّ منذُ دقائق. يطلب منِّي مرافقته إلى سوق الحراج. كان بإمكاني الاعتذار من هذا المشوار. ما لي وللحراج وزحامه وروائحه في هذه الأيام الحارَّة؟

كانت عبارة الانسحاب من هذا المشوار على طرف لساني. كدتُ أقولها، ولكنَّه عاجلني:

ـ أنا لا أعرفُ أحداً سواك في مكَّة، أرجوكَ ساعدني.

قبلتُ المساعدة وأنا أتصنَّعُ رغبةً جارفةً بصوتي، ثمَّ أنهينا المكالمة.

قلتُ في نفسي: هو في آخر الأمر زميلٌ عزيزٌ.

منذُ ثلاثة أشهر انتقلَ إلى مكَّة قادماً من أحد مناطق البلاد

ليعمل في قسم الصيانة في شركة من شركات السيَّارات. كُنّا نعملُ في مكان واحد. أغلبنا يعتبر هذا عملاً مؤقتاً بانتظار العمل الحكومي الأكثر أماناً ودخلاً أيضاً. كنا نشترك معاً في هذه النقطة وهي رفض الحياة الرخوة والهشّة. أبدى تميُّزاً في عمله. تخرَّج في الجامعة من قسم العلوم السياسيَّة، وفوجئ بأنَّ تخصُّصه لا يوجد له طلبٌ في سوق العمل. كان يتقنُ اللغة الإنكليزيَّة تحدُّثاً وكتابةً، ما جعلنا – نحن زملاءه – نتوقَّع له مستقبلاً باهراً، ولكن ليس في شركة للسيَّارات. لكنَّه أخبرنا بأنَّ النجاح في الحياة لا يأتي دفعةً واحدةً، وأنَّ على المرءِ اهتبال الفرص، وعدم انتظارها، بل صناعتها إذا تمكَّن من ذلك.

أبهرنا منطقُه في الحديث، وترتيبُ الرؤى والأفكار والكلمات في عقله قبل قولها على مسامعنا. أخبرنا بأنَّه لا يقبلُ أنْ يكونَ عالةً على أسرته رغم أنَّ أسرته ميسورة الحال. يريدُ أن يعملَ ليستقلَّ بذاته، ليشعرَ بكيانه، فاليدُ التي لا تعملُ تُعتبر يداً نجسة، كما كان يردد.

كان يعيد الكثيرَ من هذا الكلام الذي بدا لنا أنَّه – بسبب تكراره على أسماعنا – مؤمنٌ بهِ أشدّ الإيمان، وليس مجرَّد عبارات للاستهلاك فقط. كان يريدُ من الذهاب إلى الحراج تأثيثَ بيتهِ قبلَ أنْ يأتي بزوجتهِ لكي تقيمَ معه في مكَّة. وقد اختارني، عن بقيَّة الزملاء، لأساعده في هذه المهمَّة. كدتُ أنْ أقولَ له من الأفضل أنْ يأتي بزوجتهِ وتشاركه في اختيار

الأثاث، فلربما كانت لديها أفكارٌ وذوقٌ يختلفُ عنّا، ولكنني تراجعتُ في نهايةِ الأمرِ بعدَ أن تذكَّرتُ أنَّها ليست معه في مكَّة في الوقت الحالي، وحتَّى لا يظنّ أنَّني أتنصَّلُ من مساعدته والوقوف بجانبه في مدينة لا يعرف عنها الكثير حتَّى الآن.

يريدُ أنْ أرافقه إلى سوقِ الحراج لشراء أثاثٍ مستعملٍ لبيته، قلتُ لنفسي، يبدو بالفعلِ أنَّهُ مثلنا، لمْ نكنْ من أولئك النَّاس الذين يغيِّرون أثاثَ بيوتهم كلَّ عام، أو عامين على الأكثر، ولمْ نكنْ كذلكَ من النَّاس الذين يشترُون أثاثاً جديداً لبيوتهم قبل أي مناسبة دينيَّة، أو عائليَّة، أو ما شابه. نحنُ على بابِ الله! نحن البقيَّةُ الباقيةُ القليلةُ من الطبقة الكادحة، أو من الطبقة ما دون المتوسطة – إذا جاز التعبير – التي بدأت بالاضمحلال والتآكل تدريجيّاً بسبب الفجوة التي تتسع بسرعة ما بين الدخل الشهري الثابت والغلاء المتصاعد. رواتبنا الشهريَّة لا تكاد تصلُ بنا إلى منتصف الشهر، والنصف الآخر من الشهر نشتري فيه ما ينقصُ بيوتنا من أصحاب الدَّكاكين، والبقالات القريبة منَّا في نفس الحيِّ، وتمشي الأمور.

سمعتُ صوتَ تنبيهِ سيَّارته يتصاعد من أسفل البناية. نظرتُ إلى ساعتي، كانت تشيرُ إلى الرابعة عصراً. جاء في الوقت الذي حدَّده لي تماماً. أسرعتُ من حركتي، فلبستُ ثوبي وشماغي على عجلٍ. نزلتُ الدرج مسرعاً لأنَّ المصعد

كان متعطَلاً كعادته دائماً. كنتُ في كلِّ وقت وحين أحمد الله في سرِّي أقول إنَّ البناية التي أسكنُ فيها مكوَّنة من دورين، إذاً، لا حاجة إلى المصعد، إذا ما تعطَّل، أو توقَّف عن العمل، ولا أعلمُ أساساً لماذا صاحب العمارة القديمة هذه جعل لها مصعداً؟

وحالما خرجتُ من بوابة البناية، لفحتني موجةٌ من الهواء الحار، فانقبضت نفسي. وقرَّرتُ في هذه اللحظة أنْ أعتذرَ منه بكلِّ لطفٍ لعجزي عن مرافقته إلى الحراج. لا طاقة لي بهذا الحرِّ، خصوصاً أنَّني في شهور الصيف دوماً أعاني من التهاب الجلد الذي يصيبني خلف رقبتي، وما بينَ فخذيَّ: احمرارٌ وتسلُّخٌ يصيبُ هاتين المنطقتين من جسدي أثناء بذلي جهداً مضاعفاً في المشي، أو الحركة المكثَّفة، فتجعل الحياة جحيماً لا يُطاق. اقتربتُ من سيَّارته الصغيرة الأنيقة. لمحتُه يؤشِّر بيديه من وراء زجاجها النظيف. فتحتُ الباب، ودلفتُ إلى داخل السيَّارة فغمرتني نفحة من هواءُ مكيَّفِ السيارة البارد، فتراجعتُ عن الاعتذار، بعد أن استقبلني بابتسامته المعهودة. مدَّ يده فصافحني معتذراً منِّي لأنَّه ربما كان سبباً في حرماني القيلولة التي كانت بالنسبة إلي شيئاً ضروريّاً ومهمّاً، خصوصاً في أشهر الصيف اللاهب، إذ إنَّني كنتُ متعوِّداً النوم منذُ وصولي إلى البيت في تمام الساعة الثالثة، وحتَّى ما بعد مغيب الشمس. حتَّى طعام الغداء لا أتناوله أحياناً، وأكتفي بوجبة العشاء. كنتُ إذا لمْ أفعلْ هذا

”الطقس“ اليوميّ المعتاد، فإنَّ بقيَّة يومي تصبحُ سيِّئةَ جدّاً، وثقيلةً جدّاً.

(٢)

انطلقنا نحو الحراج بالسيَّارة الصغيرة الأنيقة ذات الموديل القديم قليلاً. حركة السير في الشوارع بدأت التسارعَ والازدحامَ. هكذا هي حركة السير في مكَّة، تنشط بعد صلاة العصر حتَّى ساعات متأخِّرة من اليوم. كانت وجهتنا صوبَ حراج الخردوات في "المعيصم". قلتُ له:

ـ سنبدأ البحث عن أثاث مناسب في حراج "المعيصم"، وإذا لم نجدْ حاجتنا فيه، فسنذهب إلى حراج "سوق الليل" أو ما تبقى منه، بالقرب من الحَرَم، ثمَّ إلى حراج "الجفالي" في الغزَّة ـ إذا لزم الأمر ـ. هذه هي أهمُّ "حراجات" مكَّة لبيع البضائع ذات الاستخدام المسبق.

قلتُ له ـ أيضاً ـ بحكم أنَّني ابنُ المكان:

ـ إنَّنا سوف نجدُ ضالتنا بكلِّ تأكيد في حراج "المعيصم"، فهناك يوجد أكثر من أربعمئة وخمسين محلاًّ أكثرها تبيعُ الأثاثَ المستخدمَ "سكند هاند"، وإذا لم تجدْ ما تطلبه، فمشوارٌ بسيطٌ إلى مدينة "جدَّة" سنجدُ ما نبحثُ عنه في حراج سوق "الصواريخ" الشهير، والأكبر حجماً، والأكثر تنوُّعاً.

لا أدري لماذا شعرتُ أنَّني قد أكثرتُ الحديث، فبدوتُ كأنَّني أستعرضُ معلوماتي عن مدينتي المقدَّسة، فسكتُّ قليلاً.

نظرتُ نحوه مبتسماً، هزَّ رأسه استحساناً، ثمَّ ابتسم في وجهي بعذوبة.

كانت الخيارات كثيرةً، ونحن نملكُ الوقت وحريَّة الاختيار. ثمَّ شملنا السكون خصوصاً بعدما شعرت بصداعِ القيلولة، التي لم تتم، بدأ يضربُ في رأسي بقوة.

وبسبب الحرِّ والزحام، اكتفينا بمراقبة ما حولنا بعيوننا المجهدة. وشعرتُ بوخزات من الآلام الفظيعة تتصاعد في منطقة ما بين الفخذين، فلذتُ بالصمت أكثر.

في الطريق إلى الحراج، وبلحظات الصمت تلك، حاولت أنْ أتذكَّر هل هناك غرضٌ ما يحتاجه بيتي، وحاولتُ باسترجاع بصري، ذهني، أن أدوِّر في ذاكرتي ما ينقصه، فتذكَّرتُ كلام زوجتي أنَّ الجدارَ الشماليَّ من الصالة يحتاجُ إلى دولابٍ صغيرٍ وأنيقٍ، أو إلى طاولة نضع فوقها مزهريَّة، أو حتَّى لوحة تكون ذات حجم مناسب نوعاً ما، تصلح لتعليقها على الجدار الأجرد. وتحسَّستُ جيبي محاولاً أن أتذكَّرَ كم أحمل في محفظة نقودي من مالٍ؟ حاولتُ التذكُّر، وهممتُ بإخراجها من مكمنها في جيبي السفلي، وفتحها، وعدّ النقود الموجودة فيها، ولكنِّني شعرتُ بالحرج من زميلي. فمن غير اللائق أن استخرج حافظة نقودي لأحصي ما فيها من مال تحت بصره، ولكنِّني كنتُ متأكِّداً من أنَّها تحوي بعض المال، وعطفاً على حسبةٍ بسيطةٍ سريعةٍ تمَّت في عقلي، تذكَّرتُ أنَّ الباقي الذي استلمته من صاحب البقالة الملاصقة لبيتي

مساء البارحة، بعد أن مددتُ إليه آخر مبلغ من فئة خمسمئة ريال في محفظتي، بعد شراء بعض الأغراض للبيت، لا يقلُّ عن أربعمئة ريال، وقليل من الفكَّة. وتساءلتُ في نفسي هل بإمكاني شراءُ طاولةٍ، أو دولابٍ، أو لوحةٍ للجدار الشماليّ من الصالة، بالمبلغ الذي تبقى معي؟ ربما لن يكون المبلغ كافياً لشراء طاولة متناسقة، أو دولاب صغير أنيق، ولكنَّه سيكون كافياً – على الأقل – لشراء لوحة متوسطة الحجم. وفي آخر الأمر، سأحاول أن أشتري شيئاً ما لأغطِّي جزءاً من بيتي الفارغ من أيِّ لمسة جماليَّة.

بدأت السيَّارات في الشوارع تتزايد، وحرارة الجو تنخفض تدريجيّاً، وقدَّرتُ بيني وبين نفسي أنَّنا ما إنْ نصلَ إلى حراج "المعيصم" إلّا وتكون الساعة قد تجاوزت الخامسة بقليل. بدا فيصل – كما هي عادته – صامتاً لا يتكلَّم إلا بحساب، ربما بسبب خجله أو حُسن تربيته أو كليهما معاً. خطرتْ لي فكرة أنْ أفاتحه الحديث، ولكنَّه بادرني:

- آسف.

- على ماذا؟

- على تجشُّمكَ العناءَ في مرافقتي إلى الحراج.

- لا عليك.

هذا هو أسلوبه في الحديث. يعتذرُ ويتأسَّفُ حتَّى لو أخذَ منديلاً ورقيّاً من فوق مكتبك، أو تناول أحدَ أقلامك، أو اصطدم بك في رواقٍ أو على عتبة بابٍ، فإنَّه يبادرُ إلى

الاعتذار. على عكس بقيَّة الزملاء الباقين، الذين يحمِّلونك أخطاءً لم ترتكبها، ولو كانت هذه الأخطاءُ بسيطةً، ولكنَّها مؤثِّرة من قبيل أن يعطسَ أحدُ الزملاء في وجهكَ مباشرةً، فتشعرُ ببعض زذاذ مخاطه على وجهكَ، وعندما تحتجّ وتثور أعصابك يقولُ لكَ غاضباً إنَّ السببَ في هذه النوبة من العطاس قوة رائحة عطرك الرخيص الثَّمن، أو تنتابه موجةٌ من ضحكٍ هستيريٍّ، وهو يشربُ شاياً، أو ماءً، فيتناثر الذي في فمهِ على البقيّة بسبب ضحكتهِ الفجائيَّة... وشيء من هذا القبيل.

أسرَنَا فيصلُ بأخلاقه وكرمه، ومن ناحية كرمه، كانت يدُه لا تخلو يوماً ما من إحضار مأكولاتٍ خفيفةٍ، قابلةٍ للحفظِ، وطازجةٍ يُعدُّها بنفسه عازياً مهارته إلى سنوات العزوبيَّة في العاصمةً أثناء ما كان طالباً في إحدى جامعاتها، ولأنّ أحاديثنا في غالبها في موقع العمل تدورُ حول أندية كرة القدم، وأخبارها، وحول النساء وأحوالهنَّ، وقصصهنَّ، فإنَّني أذكرُ أنَّه قال لنا في يوم ما إنَّ أحد أعمامه كان طالباً يدرسُ في لندن، والتقى امرأة إنكليزيَّة، ونشأت بينهما قصة حبٍّ سمع بها القاصي والداني حاولا تتويجها برباط الزواج، لكنَّ قوانين الابتعاث الدراسي تمنع اقتران الطالب بزوجة أجنبيَّة. وتمَّ تخييره: إمَّا صرف النظر عن الزواج، وإما الاستمرار في البعثة الحكوميَّة، فاختار ترك البعثة، وأكمل دراسته على حسابه الشخصيِّ ثمَّ اقترن بآن حبيبةِ قلبهِ،

ضارباً عرضَ الحائط كلَّ عوائق اعترضت سبيل هذه العلاقة. وكان ثمرة هذا الزَّواج بنتاً هي زوجة فيصل في الوقت الحاضر.

عندما أخبرنا فيصل بهذه القصة، أصابنا الاندهاش والعجب. ناقشناها كثيراً نحن وبقيَّة الزملاء القدماء بعيداً عن سمع وبصر فيصل بالطبع، ووجدنا فيها شيئاً خارجاً عن المألوف، ولكن الذي أثار اهتمامنا هو قصة الحب المكلَّلة بالزَّواج، وهذا قليل ونادر في بيئتنا أن يتزوَّج الإنسان بمن يحب في نهاية الأمر. وبعيداً عن وجود فيصل، بيننا ـ الرفقاء القدماء في الشركة ـ فقد خمَّنا كثيراً ملامح زوجته وهيأتها. وتساءلنا: هل تحملُ الملامح العربيَّة، أم الملامح الأنكلوسكسونيَّة؟ أم أنَّها هجينٌ بينَ هذا وذاك، وسلَّمنا في نهاية النقاش أنَّ زوجته لو كانت هجينة الملامح، فستكون بالطبع أجمل. كنَّا في نهاية هذا الحديث نتوقَّف فجأةً، ونستغفرُ اللهَ أنَّنا قد بلغنا هذا المبلغ في حديثنا عن زوجة زميل عزيز من زملائنا الأعزَّاء في غيابه، ولكنَّها الأحاديث وشجونها التي لا تنتهي، وسرعان ما عُدنا إلى واقعنا، وغرقنا في العمل ومشكلاته ومتطلباته من جديد.

(٣)

وصلنا حراجَ "المعيصم" بعد الخامسة عصراً بقليل. كان الزَّحام على أشدّه. ترى أناساً من مختلف المشارب: من مكَّة، ومن خارجها، وحتَّى معتمرين من خارج البلاد. وربما كان هذا سبباً في شهرة هذا الحراج. وأكثر ما يلفت النظر فيه بيع الحجَّاج الروس، ومن حجَّاج الدول المجاورة لروسيا، أشياء غريبة قليلاً مثل المناظير المقرّبة الليليَّة الممنوعة نظاماً، والتلسكوبات ذات المواصفات المحدودة، والحافظات الجلديَّة، وفراء الدِّببة بألوانها المختلفة، والأقلام العجيبة مثل الأقلام التي تمسكها من مكان فينزاح سائل ما داخل جسم القلم، كاشفاً عن امرأةٍ عاريةٍ تماماً وفائقةِ الجمال. مثل هذه البضائع يكون لها عددٌ لا بأس به من المشترين، وأغلبهم من فئة الشباب.

ركنَّا سيَّارتنا الصغيرة في مكانٍ بعيدٍ نسبيّاً بسبب الزّحام، وبدأنا أولى خطواتنا في سوق الحراج. كان الزَّحامُ يتزايد مع مضي الوقت، مخلوطاً بصخب أصوات الباعة "المُلَعْلِعَة". أصوات متداخلة بعضها بلغةٍ عربيَّةٍ فصيحةٍ، وبعضها بلغةٍ ركيكةٍ مكسَّرةٍ، آتية من الباعة الهنود، والبنغال، وصاخبةً من الباعة العرب. كانت المحلّات منثورةً بعشوائيَّةٍ، فلا نظام يربطها، والطرقات بينها تضيقُ حيناً، وتتَّسعُ حيناً آخر،

والروائح المنبعثة لا تُطاق. وجدنا معظم المرتادين كانوا من فئة المعتمرين في هذه الساعة من النهار، ويتزايدُ أعداد المواطنين من أهل المدينة وزوَّارها من السكَّان المحليين بعد غروب الشمس. كانت وجهتنا الرئيسية نحو قسم الأثاث المستخدم. وجدنا الكثير من الخيارات المتنوِّعة، ووجدنا أثاثاً يكادُ يكون جديداً. بالطبع هناك أناسٌ يغيِّرون أثاث بيوتهم في كلِّ موسم كالأعياد، والمناسبات الدينيَّة، والأفراح، أو حتَّى لمجرد التغيير. مالَ عليَّ فيصل قائلاً:

ـ بإمكانك أن تجعلَ بيتك تحفةً جماليَّةً رائعةً من بين هذه الخيارات الكثيرة والمتنوِّعة.

وحينما فكَّرتُ في كلامه، وجدتُه أقربَ إلى الصواب، لكن مسألة الذوق تختلف من شخص إلى آخر بكل تأكيد.

واكتشفتُ أنَّ فيصل يميلُ إلى الأثاث ذي الصبغة الكلاسيكيَّة القديمة. كان يمسك بيده بورقة يطالع بنودها كلّ لحظة. في كلِّ محلٍّ مررنا به، كان يختار منه قطعةً، أو قطعتين من الأثاث، ويدفع جزءاً من قيمتها لكي لا يُضَّطر البائع إلى بيعها، على أمل أنْ تتَّضح لديه الصورة في نهاية الجولة. لمْ أرَ في حياتي رجلاً يتبع أسلوباً للشراء مثل هذا الذي أراه منه، كأنَّه يسير على خطة مرسومة. زرنا عشرات المحلات، وفي كلَّ مرَّة نجدُ شيئاً يلفت النظر.

أثناء الجولة لمحتُ لوحةً مقاسها يبدو لي كأنَّه أربعون في خمس وثلاثين سنتيمتراً تقريباً، يؤطّرها إطار خشبي بشع

الشكل ورخيص الثمن. لفت نظري ألوانها، وموضوعها، وبساطتها. كانت اللَّوحة تعبِّرُ عن مزهريَّة فيها أزهارٌ لونها أصفر مع وردتين فقط لونهما أحمرُ قانٍ من الجهة اليمنى للمزهريَّة، وجميعها موضوعة في فازة دائريَّة الشكل، ولها خلفيَّة بألوان معتمة. كانت لوحة بديعة. قلتُ في نفسي: ربما تنفع أن تكون في الجدار الشمالي من صالة بيتنا.

قرَّرتُ بيني وبين نفسي أنْ أفاجئ زوجتي بها. ستكون ذات قيمة فنيَّة رائعة في مكانها على الجدار. كانت اللَّوحة ملقاةً بإهمال وسط مجموعة من الآرائك المكسَّرة، والطاولات، والكراسي، والمزهريَّات، والأباجورات، والمكاتب، وفي ركنها الأيمن الأسفل رأيتُ بقعةً من الطين الناشف. انتهزتُ فرصة انشغال البائع مع فيصل، واقتربتُ من اللَّوحة وانتشلتها من مكانها. أخرجتُ من جيبي كومةً من مناديل ورقيَّة، ومسحتُ بقايا الطين. نظرتُ لها مرَّة أخرى فأعجبتني. كانت تذكِّرني بأيام الدِّراسة، حين كنتُ مهووساً برسم المزهريَّات والورود. كنتُ أرسمها بدقَّة وإتقان، فيعجب بها معلّمُ الرَّسم أيَّما إعجاب لكن إعجابه تلاشى عندما عرف أنني لا أجيد سوى رسم الزهور والورود والمزهريات فقط. قرَّرتُ أنْ أشتريها، ولكن يجب ألا يشعر البائع بلهفتي لها فيغالي في سعرها. التفتُّ نحو صديقي فيصل والبائع، فوجدتهما يتفاصلان حول سعر أباجورة أنيقة مصنوعة من خشب السنديان، فتركتهما ريثما ينتهيان من

الفصال. التفتَ البائعُ نحوي حالما اتَّفق مع صديقي على سعر الأباجورة، وأشرتُ إليه ببرودٍ وقلة اكتراث نحو اللَّوحة الملقاة مستفسراً عن سعرها، فقال لي البائع وقد بدا كأنه شعر برغبتي في اقتنائها:

- إنَّها لوحةٌ رائعةٌ بالفعل، سعرها خمسون ريالاً فقط.

رفضتُ سعره المرتفع، وعرضتُ عليه مبلغَ خمسة وعشرين ريالاً، فرفض بهزَّة من رأسه. تركتُ المحل زاهداً فيها، وممنِّياً النفسَ بأنَّني ربما أجدُ أفضلَ منها في المحلّات التي لم أدخلها بعد.

(٤)

خرجنا من المحل الممتلئ بالأنتيكات والأثاث المستخدم "سكند هاند"، واستأنفنا جولتنا في الحراج المزدحم. وبسبب كثافة الزحام والمتسوقين افترقنا، فذهب كلٌّ واحدٍ في طريقه. كان هذا مريحاً لي حتَّى أستطيعَ التركيز فيما أرغبُ في شرائه. كان الالتهاب بينَ فخذيَّ وخلفَ رقبتي تتصاعد حدَّته، فأخذتُ أمشي بطريقةٍ مضحكةٍ مباعداً بين فخذيَّ مثلما يمشي البطريق!

على بعد أمتار قليلة وفي برحة صغيرة، رأيتُ مجموعةً من الناس، جلُّهم من الشباب، متحلِّقين حول حاجٍّ أبيض اللون كث اللحية، بدا لي غريباً عن البلاد من سحنته وثيابه. كان منهمكاً يعرضُ بضاعته من جوَّالات مزوَّدة بكاميرات للتصوير الضوئيِّ والمتحرِّك. كانت بضاعته مطلوبةً نظراً إلى إقبال الناس على التصوير بواسطة الجوَّالات المزوَّدة بكاميرات، واستعراض صورهم مع بقيَّة الأصدقاء والأقرباء بطريقة أشبه بالهوس. وكانت هناك أخبارٌ رائجةٌ عن توجّه حكومي بمنع الجوَّالات ذات كاميرات التصوير بسبب الاستخدام غير الأخلاقي لها من بعض النَّاس السيئين الذين أشاعوا بعض المقاطع والصور الفاضحة، ما سبَّب الكثير من المشكلات، بل أصبح بعضها الشغل الشاغل للرأي العام،

فكانت هناك مطالبات قويَّة بمنع هذا النوع من الجوَّالات. اقتربت منه، وقلَّبتُ بصري في بضاعته، ورأيتُ جوَّالاً يكادُ يكونُ جديداً وهو مزوَّدٌ بكاميرا ذات وضوحٍ عالٍ، كما كان يقول بلغته العربيَّةِ المكسَّرة. تحسَّستُ محفظتي، وسألته عن سعر الجوَّال، فقال لي إنَّه سيبيعه بمئتي ريال. حاولتُ أنْ أُخفِّضَ السعر، ولكنَّه كان مصرّاً عليه على نحو لا يقبل النقاش، فدفعتُ له المبلغ، واقتنيتُ الجوَّال. أحصيتُ الباقي من نقودي، فإذا ما بقي معي هو مئتان وثلاثون ريالاً فقط. تذكَّرتُ أنَّني قد غامرتُ بما لديَّ من مالٍ قليلٍ، كان بيتي وعائلتي أحوج إليه من شراء هذا الجوَّال. هممتُ بإعادته إلى البائع، ولكنَّني تراجعتُ في آخر لحظةٍ خصوصاً عندما تذكَّرتُ أنَّني ربَّما كنتُ الشخص الوحيد بين زملائي الذي يمتلكُ جوَّالاً بلا كاميرا، وعتيق الطراز، على عكس زملائي الذين كانوا يمتلكون أحدث الهواتف النقَّالة، وأصبحت بجوَّالي القديم الموديل موضع تندّرهم، وضحكهم، واتِّهامهم لي بأنَّني رجلٌ قديمٌ وتقليديٌّ لا يتماشى مع روح العصر. تراجعتُ عن إرجاع الجوَّال، والتفتُّ حولي لعلِّي أرى فيصل، فلم تقع عيني عليه، انزويتُ قليلاً عن زحام السوق. استخرجتُ من جيبي هاتفي القديم. أخرجتُ منه الشريحة، ووضعتها في الجوَّال "الجديد". ضغطتُ زر التشغيل، فأضيئت شاشته ذات الوضوح المبهر، ثمَّ جاءت الرسالة الترحيبيَّة المعتادة، أعقبها شاشة أخرى تطلب مني إدخال

الرقم السرّي فأدخلته. دخلتُ على قائمة الجهاز، اخترتُ وضع الكاميرا. التقطتُ بعض الصور فيما حولي بحرص وأنا أتلفَّت خشية أن يراني أحدٌ من مرتادي السوق، فيسألني: لماذا أصوّر، فيحدث ما لا يُحمد عقباه. حفظتُ الصور، ثمَّ استرجعتها، وتأمَّلتها، فأعجبني جدّاً الوضوح العالي للصور. شعرتُ بالراحة، ثمَّ قرَّرتُ الاتِّصال بفيصل. دخلتُ على قائمة الأسماء، بحثتُ عن اسمه، وقبل أن أضغط زر الاتِّصال، شعرتُ بيدٍ تربتُ برفق على كتفي من الخلف، فالتفتُّ ولمحتُ فيصل ينظر إلي والابتسامة تملأ وجهه الوسيم، رأى الجوَّال في يدي، فاتَّسعت ابتسامته أكثر، وقال لي بمرح:

ـ أخيراً! ألف مبروك الجوَّال!

شكرته، ثمَّ قال لي إنَّه قد انتهى من التسوُّق، ويرغبُ في البحث عن سيَّارة نقل تحمل ما اشتراه من أثاث، ولم يطلْ بحثُنا كثيراً، فقد اقتربَ منَّا شابٌّ من الجنسيَّة اليمنيَّة، وعرض علينا خدماته في نقل ما لدينا في سيَّارته "البيك أب"، فوافقنا بعد الاتِّفاق على الأجرة. ركبنا معه في سيَّارته، وبدأت رحلة تجميع ما اشتراه فيصل. طفنا بالمحلّات التي دفع فيها عربوناً لما قرَّر شراءه. أكمل المبالغ المتبقية، واستلم ما تمَّ اختياره. المحل الذي رأيتُ فيه اللَّوحة التي رغبت في اقتنائها كان آخر الأماكن في تطوافنا الطويل والمرهق. دفع فيصل للبائع قيمة الأباجورة، وهممنا بالمغادرة. ركبنا سيَّارة النقل، فناداني البائع بصوتٍ عالٍ

قائلاً:

ـ ألا تريدُ شراءَ اللَّوحة؟ قد قبلتُ عرضك. هات الريالات الخمسة والعشرين، وخذها.

شعرتُ بالحرج، ونسيتُ ما بقي معي من نقود، ولكنني تذكَّرتُ أنَّ الذي تبقَّى لديَّ يغطي ثمن شراء اللَّوحة. طلبتُ منه إحضارها، ونقدتُه مبلغَ الشراء، ثمَّ غادرنا إلى موقع سيَّارة فيصل البعيد عن الحراج. وحالما وصلنا طلبَ منِّي فيصل أنْ أقودَ سيَّارته وأحضرها له في المساء لكي يرافق سائق الشاحنة بالأثاث الذي اشتراه. وافقتُ دون تردد. أخذتُ منه مفتاح سيَّارته، وأخذتُ لوحتي من سيَّارة النقل. ركبتُ سيَّارته، ثمَّ انطلقتُ إلى البيت.

(٥)

في الطريق إلى البيت اشتدَّ عليَّ الشعور بالندم، وتصاعدت وتيرته، لكوني أنفقتُ جزءاً من المال في شراء جوَّال مستخدَم، الله أعلم بمدى صلاحيَّته، ولوحة قديمة، ملطخة بالطين. قلتُ لنفسي مؤنِّباً:

ـ صفقة خاسرة بكلِّ تأكيد. أليس من الأولى أنْ احتفظَ بالمال لأنفقه على طلبات البيت التي تزيد كل يوم؟

فكرت وأنا في الطريق أن أذهب إلى أحد محلَّات الجوَّالات وأبيع جوَّالي القديم لأستفيد من ثمنه على الأقل، رغم أنَّني أدركُ جيِّداً أنَّه لن يأتي بسعرٍ جيِّدٍ ومُرْضٍ، ولكنني تراجعتُ عن هذه الخطوة، عندما تذكَّرتُ أنَّ معظمَ أسماء أصدقائي وزملائي وأقاربي لا تزال مخزَّنةً في ذاكرة الجوَّال القديم، وتذكَّرتُ مدى العناء والتعب الذي سيحلُّ بي حينما أعيد إدخال الأسماء، والأرقام في جوَّالي "الجديد".

بالتأكيد، لنْ أسلم من لوم زوجتي لشراء الجوَّال، ولكن بكلِّ تأكيد ستحوز اللَّوحة رضاها، فقد كانت تذكِّرني دوماً بالذهاب إلى أحد الأسواق، وشراء طاولة، أو لوحة، أو أيّ شيءٍ جماليٍّ ينفعُ أن يكون لصيق جدار الصالة الشماليّ. ولكنَّنا كنَّا نؤجِّل الشراء لأن هناك ضروريَّات ملحَّة كانت تمنعنا من التسوُّق والشراء. ستفرح – بلا شكٍّ – لشرائي

اللّوحة، كان اختياري موفّقاً لهذه التحفة، وتنمُّ عن ذوقٍ رهيفٍ، ولا عجب في ذلك، فأنا قدْ درستُ عاماً من أصلِ عامينَ في معهد التربية الفنيَّة، ولكنَّني لم أستطعْ إكمالَ دراستي لظروفي وظروف أسرتي الماديَّة الصعبة، فقررت الانسحاب ووقف تعليمي، وزاد الوضعُ تأزُّماً بعد وفاة والدي، فكنتُ المعيل الوحيدَ للعائلة من بعد موته. أيام ظهرت أمامي فجأة مثل حطام قادم من زمن قديم سرعان ما تلاشى بين لغط وازعاج الشوارع المكتظة بالبشر والسيارات.

مع ذلك لديّ نظرةً لا تخيبُ في اقتناء اللَّوحات الجميلة المقلّدة التي يرسمها بعض الزملاء القدماء، ويهدونني إيَّاها، لكنّني كنتُ أتخلَّص من معظمها لأنَّها تبدو لي مجرّدة من تلك اللمسة الفنيّة التي لا تخطئها عين الخبير، ولأنَّها غير مؤطَّرة في غالب الأحوال ما يجعلها تحتاج إلى جهد ومال إضافي لإخراجها بشكل مناسب. بعض هؤلاء الزملاء الذين باتوا – بكل تأكيد – يفتقرون إلى الخيال والكفاءة بسبب الانغماس في ظروف الحياة ومصاعبها، وفقدوا رهافة وحساسيَّة الفنان الذي يرفض كل سائد مبتذل، لا أزال على تواصل خجول معهم. نلتقي أحياناً في أحد المقاهي ونسترجع ذكرياتنا معاً في أيام الكليَّة بكل ما تحمله من فشل وصخب وهزيمة وفرح ومواقف لا تنسى.

وصلتُ البيتَ. ركنتُ سيَّارة فيصل بجانب سيَّارتي. حملتُ اللَّوحة وقرَّرتُ أنْ أستحمَّ وأرتاحَ قليلاً، ثمَّ أعيد سيَّارته إليه.

فتحتُ البابَ وناديتُ على زوجتي لكنّها لم تكنْ موجودةً. قلتُ في نفسي: سأفاجئها بوجودِ اللَّوحة، وسأعملُ على تثبيتها على الجدار، وفي حال عودتها، ستجدها معلَّقةً في المكان الذي رغبنا دوماً فيه. بحثتُ في البيت عن مطرقة ومسامير، فتذكَّرتُ أنَّ لديَّ مطرقةً، وبعضَ المسامير في غرفة تقع فوق السطوح. هذه الغرفة الصغيرة حوَّلناها إلى مخزن للكراكيب وبقايا الأشياء التالفة. صعدتُ إلى السطح. فتحتُ الحجرة. بعد بحث طويل وجدتُ المطرقةَ مع مسامير وجدتها متناثرة فوق أرضيَّة الحجرة. عدتُ أدراجي إلى الشقَّة. أخذتُ القياسات المناسبة بواسطة النظر، والعودة إلى الوراء في كلِّ مرَّة لأعرف مدى ملاءمة الموقع المختار لتثبيت المسمار. ثبتُّ المسمار على الجدار، في المنتصف تماماً. اقتربتُ من اللَّوحة، بلَّلتُ بالماء قطعةً من القماش، ومسحتُ بقايا التراب والطين العالق بها. فجأةً رأيتُ اللَّوحة في منظر وشكل خلاَّب غير الذي رأيته عندما كانت بحوزة البائع في الحراج. بدت لي كأنَّها رُسمت للتوِّ واللحظةِ. ألوانها تنبضُ بالإشراق والوضوح. لوحة تخاطب شيئاً ما داخل النفس، وتحرّك تلك البقعة الساكنة والغامضة في العقل والقلب فتترجم على شكل آهة أو صيحة إعجاب أو انبهار. تأمّلتها طويلاً، ولمحت في الركن الأيسر منها توقيع الفنان الذي رسمها. همستُ لنفسي:

- ربما رأيتُ هذه اللَّوحة من قبل. ليست غريبةً عليَّ. لكن

أين؟ ومتى رأيتها؟

لم أعرفْ، فقد خانتني الذاكرة، ففشلتُ في التذكُّر.

أعدتُ تأمُّلها من جديد. هناك شيءٌ ما يشدُّ الرَّائي إليها. شيءٌ مثل السحر يجعلك تتسمَّر أمامها، وتطيل النظر فيها أطول مدة ممكنة دون أن يصيبك الملل أو السأم. هذه هو الخيط اللامرئي الذي يشدَّنا إلى منظر ما أو لوحة ما أو حتى وجه ما تلقاه مصادفة في مكان ما، فيثير كوامن نفسك ولا تعرف السبب.

تذكَّرتُ فجأةً أنَّني قد سبق وقرأتُ عن تأثير اللَّوحات في نفوس الناظرين لها في صحيفة، أو مجلة ما، ولكن أين؟ ومتى؟ لا أعرف. هي على العموم تبدو لوحة مقلَّدة ربما لأحد الفنانين الكبار ولا شك، فموضوعها مزهريَّة تحمل أزهاراً تنبتُ في بيئة غير بيئتنا المجدبة الخالية من الزهور والورود. أما أرضيّة اللوحة، فكانت سوداء، في تناقض صارخ بين زهو الزهور بألوانها المفرحة للنفس وكآبة اللون الأسود. اقتربتُ مرَّة أخرى من اللَّوحة محاولاً أنْ أجدَ توقيعَ الفنان الذي رسمها. بحثتُ في كلِّ الزوايا، فوجدتُ في أقصى الركن الأسفل – الأيسر توقيعاً أشبه بالخطوط المتقاطعة. كان جزءٌ من التوقيع بارزاً، والجزء المتبقي منه مختفياً تحت خشب الإطار الرخيص الذي يحيط بها. لبثت على هذه الحال مدَّة طويلة ساهماً، متفكِّراً، ناظراً إلى الوحة حيناً، والجدار حيناً آخرَ، محاولاً استرجاع أين سبق لي

رؤية هذه اللّوحة؟ خرجتُ من هذا التأمُّل الطويل بتوطيد العزم على استبدال إطارها الرخيص بإطار أجمل وأفضل عند أحد النجَّارين المهرة. رجعتُ خطوات إلى الوراء لكي أتأمَّلها عن بُعد أكثر. وذُهلتُ من جمال منظرها المتجدِّد والموحي بكلِّ إيحاءات الجمال والفتنة، كلَّما بعدت بخطواتي عنها. وتذكَّرتُ كلام أحد المحاضرين الذين كانوا يدرسونني في المعهد، في قسم التربية الفنيَّة، الذي كان دائماً يردِّد على مسامعنا أنَّه إذا أردت أن ترى اللَّوحة، أيَّ لوحة، أو أيَّ عملٍ فنِّي بشكل أفضل وأعمق، فلا بدَّ أن تبتعد عنه بخطواتك قليلاً، حينئذ ستراه بشكل أوسع وتبرز لك كل تفاصيله من أبعاد، وتناسق، وظل، ونور، وخلفيَّة، وما إلى ذلك. أطلتُ تأمُّلها ووجدتها كأنَّها رُسمت لكي تكونَ في مكان أجمل وأفخم من هذا المكان بالذات. عنَّ لي خاطرٌ ما، أخرجتُ جوَّالي ذا الكاميرا الذي اشتريتُه من الحراج، ووضعته على وضع التصوير، والتقطتُ عشراتِ الصور للوحة. التقطتُ لها عدَّة صور مقرَّبة ومبعَّدة، والتقطتُ لها لقطات فيديو قصيرة. فعلتُ ذلك ربما لكي أريها للزملاء في العمل، والزملاء في التخصُّص، وأستشيرهم في اللَّوحة، ومدى مناسبة مكانها، ولكي أسمعَ رأيهم في حسن اختياري هذه اللَّوحة. وبهذه الطريقة، ربما أفادني أحدهم بشيء من التفاصيل عنها، التي أبت ذاكرتي المجهدة أن تسترجع شيئاً يتعلَّق بها. وشعرتُ بقليل من الرضا. ارتاحت نفسي من اللوم والعتاب. وفي

غمرة هذه المشاعر المتذبذبة بين الطمأنينة والندم، رنَّ جرس جوَّالي ولمحتُ في شاشته المضيئة اسم فيصل. كان يطلبُ منِّي أن أحضرَ سيَّارته إذا سمح وقتي بذلك، قال لي إنَّه يريد أن ينفذ بعض المشاوير المهمَّة. تناولت مفتاح سيَّارته من فوق الطاولة أمامي، ثمَّ انطلقت إلى بيته لأُعيد إليه سيَّارته.

(٦)

في الطريق إلى بيت فيصل، رأيت مؤشر الوقود يضيء معلناً فراغه، فاتَّجهتُ إلى إحدى محطات البنزين. أعتقدُ أنَّ ما بقي في جيبي سيكون كافياً لملء خزَّان الوقود. وصلتُ المحطة. أوقفتُ السيَّارة، وطلبتُ من العامل ملءَ الخزَّان بالوقود، وأثناء انتظاري تعبئة السيَّارة بالبنزين، انفتح فجأةً درجُ السيَّارة الداخليّ الذي يقعُ أسفل اليد اليمنى للسائق بعد أن رفعت مرفقي الأيمن من فوقه، مددتُ يدي لأقفله، فلمحتُ ألبومَ صورٍ غلافه وردي اللون. كدتُ أقفل باب الدرج، ولكن فضولي كان أكبر. تناولتُ الألبوم وقلبته على الجهة الأخرى، ووجدتُ كلماتٍ مكتوبةً خلفه بخطٍ أنيق: ألبوم شهر العسل، وفي أسفل هذه العبارة مكتوبة بقلم أحمر: "سارة وفيصل"، وكان حرف الواو الواقع بين الاسمين قد تمَّ تطويعه ليأخذ شكل رسمة القلب المبتذلة التي يرسمها العشّاق لحبيباتهن في القرى البعيدة التي كانت تحكمها قوانين البساطة والتواضع. وبدأتُ تقليبه. رأيتُ صوراً كثيرةً لفيصل وزوجته أثناء العرس، وما بعد العرس، وصوراً بدت لي كأنَّها التُقطت في أحد الفنادق. كانت الصور كثيرةً، ولفت نظري مدى عذوبة ابتسامة زوجته، وخلب لبُّي جمالها الفاتن. تعلو وجهها ابتسامة دافئة، وهناك لمعة مشرقة تلوح في عينيها

شديدتي الصفاء والبياض. دقّ قلبي حتَّى شعرتُ به يكاد يخرجُ من مكانه، وكدت أبكي من كل هذه الفتنة التي هزتّ وجداني وبعثرت كياني. وزاد بلائي وتصاعد عندما لمحتُها في صورة تبدو في ملابس مثيرةٍ التُقطت لها فوق سرير النوم، وفي كلِّ مكانٍ في البيت. كل شيء فيها كان في حالة التمام والكمال. وخطر لي خاطرٌ أنْ أستلَّ صورةً وحيدةً من صورها. تردَّدتُ كثيراً. كنتُ حائراً ومتذبذباً بين أخذها وتركها في مكانها. وسال عرقي رغم برودة مكيّف السيَّارة، ونسيت تماماً الالتهاب بين فخذي وأسفل رقبتي من الخلف. أعدتُ رؤية الصور مرَّة أخرى على عجل حتَّى وقعتْ عيني على صورة أخرى لها هزَّتني من الأعماق. أمعنتُ النظر في الصورة. كانت تبدو فيها مبتسمةً برضى وفرح، وتضعُ سبَّابة يدها اليمنى على خدِّها الأيمن، وشعرها منسدلٌ على كتفيها العاريين. كانت لابسة "سوتيان" من الدانتيل المخرّم أحمر اللون، و"كلوت" أحمر اللون أيضاً، والمؤلم لي أنه كان شفافاً يشفُّ معظم ما يخفي من "كنزها". قلبتُ الصورة على الجهة الأخرى، فوجدتُ مكتوباً خلفها بخطٍّ أنيقٍ: ما رأيك في هذه الصورة يا زوجي الحبيب؟

كانت صورةً مؤلمةً ومفجعةً لي في آنٍ. هناك جمالٌ أنثويٌّ مرعبٌ عندما تلتقي للمرَّة الأولى يهزُّك من أعلى إلى أسفل بلا رحمة. يجعل أفكارك المحتشدة تتحوَّل إلى فوضى عارمة، وتفقد بمرور الوقت منطقها ومسارها الطبيعي. ورغماً عنِّي

قارنتُ بين هذه الأنثى بالأنثى التي عشتُ معها قرابة ثلاث سنوات، فوجدتُ لا وجه للمقارنة. وشعرت بذلك الشعور الذي ينتابك عندما تتذوق مرارة طعم الخسائر تلو الخسائر، وتتلاعب بك الانتكاسات الموجعة التي تغلّفها أكوام من كلمات كلها محض أباطيل في أباطيل. توقَّفت حركة عيني أمام الصورة التي كنتُ ممسكاً بها، ثمَّ أخرجتها من مكانها، بعد تردد كبير، وأخفيتها في جيبي السفلي، بعد أن لففتُ عليها مناديل ورقيَّة سحبتها من علبة المناديل الموضوعة على "تابلوه" السيارة. استغربتُ أن صديقي يحوي في بيته كلَّ هذا الجمال الخلاَّب وهو يعيش بعيداً عنه، ولُمته أشدَّ اللَّومِ في نفسي على مغامرته بترك مثل هذه الصور الحميمة في دُرج سيَّارته ما يعرضها للضياع والانكشاف. لعنتُ الشيطان بصوت خفيض، وشعرت بتأنيب الضمير لفعلتي تلك. أقفلتُ الألبوم، وانتبهت إلى طرق عامل محطة البنزين بأصابعه على نافذة السيَّارة. أنزلتُ زجاجَ النافذة مستفسراً عن المبلغ، قال لي: ثلاثون ريالاً. أخرجت محفظتي ثمَّ أعطيتُه النقودَ. أدرتُ مفتاح السيَّارة، واتَّجهتُ إلى بيت فيصل وأنا في حالة يُرثى لها من الخوف، وتأنيب الضمير، والشعور بالسفالة والوقاحة.

قدتُ سيَّارته بهدوء في شوارع مدينة أصبحت في نظري موحشة ومنسبة مخترقاً أحياءها وعقلي لا يزال يعمل، وقلبي يدق، وضميري يؤنبني على نحو متسارع. كنت ألمح

السيارات أمامي وهي تذوب في سراب أنوار الشوارع التي سيحل عليها الظلام قريباً، وأمضغ الصمت الذي حلَّ بي فجعلني عاجزاً عن اتخاذ أي قرار سليم وصائب.

خفق قلبي عندما وجدتُه ينتظرني أسفل البناية. ركنتُ السيَّارة، وترجَّلتُ منها. اقتربتُ منه محيِّياً. سلَّمتُه المفتاح، وقرَّرتُ العودة إلى بيتي بسيَّارة أجرة. لكنَّه استحلفني بالدخول إلى بيته وشرب كأسٍ من الشاي معه. حاولتُ التملُّص من دعوته، ولكنَّه كانَ مصرّاً، فلم أجد بُدّاً من الاستجابة لطلبه. وصعدنا إلى الأعلى، إلى الدور الثالث بواسطة المصعد... ووصلنا باب الشقَّة. فتح الباب فدخل أمامي، وأشار إلي بيده أن أتبعه. لا أعرفُ لماذا اختلج قلبي عندما تخيَّلتُ – مجرَّد تخيُّل – أنَّني سوف أجدُ زوجته مرحِّبةً بي كضيفٍ لزوجها. أزحتُ هذا الخاطر منِّي بصعوبة. بعد ثوانٍ من الدخول إلى الشقَّة، أصابني الانبهارُ ممَّا رأيتُ، فقد كانت الشقَّة مؤثَّثةً على أجمل ما يكون. بدا أثاثُها جديداً ومسايراً للموضة، وخاضعاً لمواصفات شديدة لأصول قواعد الأناقة. كان كلُّ هذا الذوق من الأثاث الذي اشتراه من الحراج ووزَّعه في الشقَّة بطريقةٍ رائعةٍ ومدروسة، وبان لي ذوقه الرهيف والمثالي. وسألتُ نفسي: مَن يصدِّق أنَّ كلَّ هذه الأُبَّهة وهذا الجمال بسبب أثاثٍ مستخدمٍ ومجلوبٍ من الحراج؟

كانت كلُّ قطعةٍ منه موضوعةً في مكانها الصحيح، حتَّى

ألوان الجدران متناسقة مع لون الأثاث ومع لون سيراميك الأرضيَّة ومع لون بعض السجاجيد المختلفة الأحجام والمنثورة هنا وهناك. بدت الشقَّة كأنَّها قصر مصغَّر لأحد الأثرياء وليس لموظَّف بسيط يعملُ في شركة للسيَّارات. تأمَّلتُ بيتَه مبهوراً مشدوهاً حتَّى انتهينا من تناول الشاي، ثمَّ ودَّعته وعدتُ إلى بيتي بعد أنْ أصرَّ أنْ يوصلني بسيَّارته.

كان أوَّل شيءٍ فعلته عند عودتي إلى البيت إخفاء الصورة المختلسة من ألبوم صور فيصل وسارة في حجرة المخزن فوق السطوح. صعدتُ إلى أعلى العمارة بخفَّةٍ محاولاً ألّا أحدثَ أيَّ صوت يدلُّ على وجودي. فتحتُ باب المخزن. ودرتُ ببصري في أرجاء الحجرة باحثاً عن المكان المناسب لإخفاء الصورة. وأخيراً وضعتها وسط مجلة نسائيَّة قديمة، ووضعتُ المجلة أسفل أحد الكراسي المكسَّرة بعد أن غلَّفتُ المجلَّة بكيسٍ بلاستيكيٍّ ليحميها من التراب، ومن الرطوبة، ومن الحشرات، والقوارض. شعرتُ بالراحة بعد وقت طويل من التوتر. نزلتُ من فوق سطح العمارة. ذهبتُ إلى بيتي لأجد زوجتي بانتظاري. ما إن وقع بصرها عليَّ، سمعتها تدعوني إلى تناول الشاي مع كعكة أعدَّتها لي خصِّيصاً مكافأةً لي على إهدائها اللَّوحة الجميلة ــ كما وصفتها ــ وأثنتْ على ذوقي في حسن اختيارها. شعرتُ بشيء من تأنيب الضمير نحوها عندما تذكَّرتُ الصورة المخفيَّة لزوجة زميلي في العمل، التي انتزعتها من ألبوم زفافه. كم شعرت

في هذه اللحظات بأنّني وضيعٌ إلى أقصى درجة.

كانت قادمةً من المطبخ تحملُ إبريقاً من الشاي. أمسكتُ يدها وسرنا نحو الصالة، وجلسنا على المقعد الإسفنجي الكبير المكسوّ بقماش من الشامواه السوداء اللون الموضوع أمام التلفزيون. كنَّا نتناول الشاي والكعك بصمت مرتجف تتخلّله بعض كلمات لا معنى لها. كنتُ أراها تلتفت كلَّ لحظةٍ وأخرى نحو اللَّوحة وقد ارتسمتْ على وجهِها ابتسامةٌ عذبةٌ.

أما أنا، فغرقتُ في الصمتِ...

(٧)

مكَّة المكرَّمة، ٢١/٨/٢٠٠٣

في صباحِ اليومِ التالي، التقينا، نحن الموظَّفين، في الشركة مثل كلِّ يوم. تناولنا إفطارنا جماعة ــ كالعادة ــ في استراحة التوقُّف الأولى التي تبدأ في تمام العاشرة، وتنتهي في العاشرة والثلث تقريباً، وحينما كنَّا نرشفُ الشاي الذي يعقب الإفطار السريع، سألني فيصل ــ فجأةً ــ عن اللَّوحة التي ابتعتُها من الحراج. شعرتُ بنوعٍ من العزاء حينما قال فيصل إنَّني قد أحسنتُ الاختيار ما شجَّعني على إخراج جوَّالي من جيبي، ثمَّ فتحتُ نافذةَ الصور، واستعرضتُ مع زملائي صورَ اللَّوحة التي التقطتُها في البيت بجوَّالي. مرّ الجوَّال بما فيه من صور اللَّوحة على كلِّ يدٍ من أيدي الزملاء حتَّى وصل الجوَّال إلى يد فيصل. وأثار قليلاً من استغرابي حينما رأيتُه مستغرقاً في النظر إلى الصور. لبثَ زمناً غيرَ معتادٍ مثبتّاً بصره على شاشة الجوَّال، فجعلني ألتفتُ نحوه لكي أسترجع هاتفي. كنَّا نخوض في حديث حامي الوطيس حول مباراة مرتقبة في كرة القدم، بين فريقي "الاتحاد" و"الأهلي" في مدينة جدَّة ستقام في نهاية هذا الأسبوع. مددتُ يدي لأسترجعَ جوَّالي لكنَّني رأيتُه لا يزال مستغرقاً في تأمُّل شاشة الجوَّال وقد بدا الاهتمام على وجهه.

ـ سأكونُ سعيداً لإهدائك هذا الجوَّال إذا أعجبك.
قلتُ له هذه العبارة ضاحكاً، لكنَّه لم يعرنِي انتباهاً. كان لا يزال شارداً ببصره في النظر إلى شاشة جوَّالي. أصابني الفضول، فقمتُ من مكاني، واقتربتُ منه لأرى إلى ماذا كان ينظر في شاشة الجوَّال كلَّ هذا الوقت؟
اقتربتُ منه بخفَّةٍ، وقفتُ وراءه تماماً، وتلصَّصتُ بالنظر إلى الجوَّال، فرأيته مثبِّتاً عينيه في مشاهدة صور اللَّوحة التي اشتريتها. ينتقل من صورة إلى أخرى، وضعتُ يدي اليُمنى على كتفه وقلت له مبتسماً:
ـ اللَّوحة والجوَّال كلاهما لكَ، لو أحببت!
انتبه إلي كأنَّه كان غارقاً في نومٍ عميقٍ.
ـ ماذا قلت؟
أعدتُ عليه كلامي، فابتسمَ، وقال لي وقد كان الإحراجُ بادياً على وجهه:
ـ شكراً لكَ يا صديقي العزيز. أعتذرُ منك لإبقاء هاتفك في يدي كلَّ هذا الوقت.
ووجمَ من جديد. ناولني الجوَّال، ثمَّ قال برجاءٍ لفت اهتمامي:
ـ هل بإمكانك أنْ ترسلَ صور اللَّوحة التي اشتريتها من جوَّالك إلى جوَّالي؟
ـ بكلِّ سرورٍ صديقي العزيز.
أرسلتُ صور اللَّوحة إلى جوَّاله بتقنية البلوتوث. شكرني

ثمَّ انصرفنا معاً في خدمة الزبائن الذين بدؤوا التوافد على "كاونترات" الشركة.

مع نهاية الدوام، وأثناء خروجنا من بوابة الشركة الزجاجيَّة، فاجأني فيصل بالقول:

- أنا عزمتُ نفسي عندك على العشاء الليلة.

ارتبكتُ قليلاً من كلامه. هذا ليس فيصل الخجول، الشديد الأدب، لدرجة المبالغة في التأدُّب. كان يقفُ أمامي مبتسماً ينتظر منِّي الجواب.

خرجتُ من شرودي وقلت له منتزعاً اهتماماً زائداً لدعوته المفاجئة:

- بكلِّ سرورٍ. أهلاً ومرحباً بكَ! البيتُ بيتكَ.

حدَّد الموعدَ من تلقاء نفسه عندما قال لي:

- إذن، سألتقيكَ في بيتكَ العامر في تمام التاسعة والنصف مساءً. إلى اللقاء يا صديقي العزيز.

شكرني على قبولي الدعوة، ثمَّ انصرف، ولبثتُ في مكاني واقفاً لمدة وجيزةٍ مستغرباً تصرُّفات فيصل غير المألوفة، التي لم يسبق لي أن رأيتها منه. قلت لنفسي ربما يريد أن يقول لي شيئاً ما لا يريد قوله لي في الشركة أمام الزملاء، وتذكَّرتُ صورة زوجته المختلسة، فانقبض قلبي، وشعرتُ بالخوفِ الممزوجِ بالحيرةِ والترقُّب، فلربما اكتشف اختفاءَ صورة زوجته وشَكَّ في أنني انتزعتها من الألبوم، ورغب أن يسترجعها منِّي بطريقةٍ لطيفةٍ بعيدةٍ عن الشدِّ والجذبِ،

ومأمونة العواقب عن الفضائح التي تحدثُ غالباً في هكذا مواقف.

شعرتُ بالخزي يملأُ نفسي ممَّا فعلت، ووطَّنتُ نفسي على الاعتذار له بحجَّة أنَّني وجدتُ الصورةَ ملقاةً على أرضيَّةِ السيَّارة، وأردتُ أنْ أسلِّمها له لكنَّني نسيتُ بسبب زحمة المشاغل. كانت حجَّة تبدو منطقيَّة نوعاً ما، ولكنني مع ذلك أشعر بالخجلِ وقلّة المروءة بفعلتي تلك.

الله وحده يعلم كيف قضيت الساعات التي تفصل بينه وبين الحضور ضيفاً إلى منزلي. كانت الأفكار السوداء تعصف بي غارقاً في صمت جامد لا يرحم. ولحسن الحظ أن زوجتي لم تفطن إلى ما يحدث لي، فقد كانت منهمكة في إعداد وجبة عشاء تليق بالضيف الذي وصفته لها بأنه من أعزّ أصدقائي وأكثرهم التصاقاً بي. مضت الساعات بطيئة متمهلة كأنها تلتذ بتعذيبي لكنها مضت بسلام على كل حال. كانَ فيصل عند كلمته، فما إن بلغت الساعة التاسعة والنصف، حتَّى طرق الباب زائراً. ارتجفَ قلبي قليلاً، وكنتُ في خضم الأفكار التي تسرح وتمرح بي قد استبدلتُ خطَّة الاعتراف بخطَّة جديدة، فقد عزمتُ على الإنكار لو حدَّثني عن الصورة الضائعة، وقرَّرتُ أنْ أقلبَ الطاولةَ عليه حتَّى لو كلَّفني هذا قطع الصلة به نهائيّاً.

(٨)

طلبتُ من زوجتي أنْ تُعدَّ عشاءً معتبراً، ففعلتْ ما طلبتُه منها، فأعدَّت لي ولضيفي ما لذَّ وطابَ من الأطعمة، التي كلَّفتنا بقيَّة ميزانيَّةِ الشهر بكاملها.

جاء فيصل، فانزويتُ، أنا وهو، في مجلس الرجال، وبدأنا في الحديث الذي تخلَّلته الضحكات واسترجاع بعض المواقف المشتركة في الشركة طوال الأشهر الماضية. لبثنا على هذه الحال حتَّى دقَّت الساعة الحادية عشرة والنصف، وفي كلِّ لحظة وأخرى، أنتظرُ منه أن يفاتحني في موضوع الصورة المفقودة، لكنَّه لم يتطرَّق إلى أيِّ شيءٍ من هذا القبيل، بل بدا لي كأنَّه فرحٌ مسرورٌ بـ"عزيمتي" له في بيتي. شعرتُ بقليلٍ من الراحة. لبثنا نتجاذب أطراف الحديث حتَّى نهض مستأذناً للعودة إلى منزله، فتنفستُ الصعداء. حاولتُ أن أستبقيه، ولكنَّه قال إنَّ موعد نومه قد اقترب. رافقته حتَّى الباب، لكنَّه فاجأني، بل أرعبني بالتوقُّف أمام الباب، ثمَّ رسم على وجهه ابتسامة عذبة قبل أن يفاجئني بالقول بلهجة استعطاف لم أعهدها منه البتة:

- صديقي العزيز حميد لي طلبٌ صغيرٌ عندكَ!

ارتجَّ قلبي، لكنَّني قلتُ له متصنِّعاً الابتسام:

- تفضَّل. اطلبْ ما بدا لكَ، صديقي العزيز.

ـ أريدُ أنْ أرى اللّوحة التي اشتريتها من الحراج، إذا كان ذلك ممكناً.

فوجئتُ بطلبه، واسترجعتُ حالة التفكير العميق التي كان فيها فيصل صباح اليوم في الشركة، عندما كان يطيل النظر في جوَّالي للوحة التي اشتريتها. سمعتُ صوته وهو يقول لي عندما لاحظ صمتي:

ـ انسَ الأمرَ، يبدو أنَّني قد تجاوزتُ حدودي.

أجبتُه بانفعالٍ:

ـ أبداً، أبداً يا صديقي العزيز. تفضَّل معي.

أمسكتُ بيده اليُمنى، وقُدته إلى الصالة، وأوقفته أمام اللَّوحة. تسمَّر أمامها زامّاً شفتيه وهو يتفحَّصها بعينيه. كنتُ أتطلَّعُ فيه باهتمام وحيرة. كان أشبه ما يكون بتمثالٍ مصنوعٍ من حجرٍ. لبثَ وقتاً لا بأسَ به قبل أن يشعرَ بنفسه واقفاً كلَّ هذا الوقت في منتصفِ بيتي. اعتذرَ بأدبٍ، ثمَّ غادر البيتَ وهو لا يزال مستغرقاً في التفكير.

بعد خروجه مكثتُ أيضاً متفكِّراً فيما حدث لفيصل منذُ قليل. وسألتُ نفسي: ماذا وجد صديقي في هذه اللَّوحة التي اشتريتها من الحراج ليقف أمامها هكذا لا يحيل بصره عنها؟ ما الذي لفتَ نظره فيها إلى هذه الدرجة؟.

كنستُ كلَّ أفكاري من رأسي حينما آويتُ إلى فراشي. وجدتُ زوجتي نائمةً. ألقيتُ جسدي على السرير بجانبها، وما هي إلّا لحظات حتَّى دخلتُ في النوم.

انتبهتُ من نومي مفزوعاً على رنين الجوَّال المتواصل. تناولتُه من فوق الطاولة القريبة منِّي. طالعتُ في شاشته المضيئة باحثاً بعينيّ الناعستين عن الوقت. كانت الساعة تشيرُ إلى الثالثة صباحاً، وكان على الخط فيصل، فشعرتُ بالقلق:

- أنا آسفٌ على إزعاجك.

- لا عليكَ.

قلتُ له ذلك وأنا أفركُ عيني اليُمنى لكي أطردَ بقايا النوم. لبثتُ ثوانيَ منتظراً منه الإفصاح عن سبب هذه المكالمة في هذا الوقت المتأخِّر. ظلَّ صامتاً قبل أن يقولَ لي بكلِّ هدوءٍ:

- اللَّوحةُ التي لديك يا صديقي...

ثمَّ صمتَ قليلاً، فعاجلته:

- ماذا بها اللَّوحة؟

أجابَ بنبرةٍ هادئةٍ لكنَّها حاسمةٌ:

- هي واحدةٌ – بلا شك – من لوحات الفنان العالمي فان غوخ. وهي تُسمَّى لوحة "زهور الخشخاش"، وبالمناسبة هي لوحةٌ نادرةٌ ومفقودةٌ منذُ زمن. سنتحدَّث كثيراً في هذا في الأيام المقبلة. هنيئاً لك!

قال ذلك، ثمَّ أنهى المكالمةَ سريعاً!

(٩)

مكَّة المكرَّمة، فجر ٢٢/٨ /٢٠٠٣

انتبهتْ كلُّ حواسِّي. وطارتْ بقيَّةُ النوم من عيني. لبثتُ في الفراش بلا حراك ممسكاً الجوَّال محملقاً في الظلام. كان عقلي يعملُ بكلِّ طاقته. الأفكار المزدحمة تنثالُ منه مثل شلالٍ منهمر من الماء.

لا إراديّاً وجدتُ قدماي تقوداننني إلى الصالة. نورٌ خافتٌ ينبعثُ من لمبة بعيدة معلَّقة في السقف، وضوؤها مسلَّط على اللَّوحة التي أقفُ أمامها. توقفت أمامها متأملاً ولم أشعر حتَّى بزوجتي وهي واقفة بجانبي مباشرةً. لم أحس بها إلّا بعد أن وضعت يدها على كتفي وهي تهزُّني كما يُهزُّ النائم ليستيقظ. خرجتُ من ملكوتي، ونظرتُ نحوها.

قالت لي والنعاس لا يزال معلقاً بعينيها:

ـ ما بك؟ لماذا أنتَ واقفٌ هكذا أمام اللَّوحة؟

لم أجبْ. ماذا يمكنني أنْ أقولَ لها؟ هل أخبرُها أنَّنا نملكُ لوحةً رسمها فنانٌ عالميٌّ اسمه فان غوخ مات فقيراً معدماً منذُ أكثر من مئة وثلاثين عاماً، وأنَّ سعرها حاليّاً يُقدَّر بعشرات الملايين من الدولارات؟ الآن تذكَّرتُ أنَّني قد سبق لي أنْ قرأتُ شيئاً عن لوحة ما مسروقة، وهذه اللَّوحة هي لوحة "زهور الخشخاش" لرسام عالمي يدعى فان غوخ

وقد سمعت عنه كثيراً عندما كان بعض أساتذة المعهد يحدثوننا عنه بتبجيل واحترام شديدين، وأين هي الآن؟ إنَّها في بيتي.

هل أقولُ لها إنَّ وجودها في بيتنا سيكون نقمةً كبرى علينا، وربَّما يكون نعمة فوق حاجتنا وطاقتنا. هل أقولُ لها إنَّنا – ربما في غضون أيام قليلة – سنكون حديثَ العالم كلِّه، في كلِّ وسائل الإعلام من صحفٍ، وتلفازٍ، وإذاعةٍ. هل أقولُ لها إننا ربَّما سنتعرَّض للسجن والاعتقال بتُهمة سرقة لوحة عالميَّة، مَن سيصدّقنا إذا قلنا إنَّنا اشتريناها بأرخص الأثمان من حراج قديم وعتيق تُباع فيه الأشياء التي يستغني عنها أصحابها إلى الأبد؟

كانت الأفكار تتصارع في عقلي. شعرتُ كأنَّني مقبلٌ على الدخول في دوَّامة كبيرة أكبر منِّي، ومن زوجتي، ومن كلِّ ظروفنا التعيسة والمتذبذبة. ماذا سأفعل بهذه اللَّوحة؟ هل أبيعُها أم أحتفظُ بها؟ وإذا قرَّرتُ بيعَها، فلمَن؟ مَن هو الزبون المناسب؟ وكيف سأحصل عليه؟

من ناحية أخرى، هجستُ لنفسي قائلاً: ربَّما تكون هذه اللَّوحة مقلَّدةً وليست أصليَّة؟ كيف عرف فيصل أنَّها أصليَّة وأنَّها بالفعل إحدى لوحات فان غوخ المسروقة؟ وإذا أردتُ التأكُّد من اللَّوحة هل هي حقيقيَّة أو زائفة، فأين يمكنني فعلُ ذلك؟ وكم سيكون السعر المناسب للوحة في حالِ كونها حقيقيَّة؟

حينما لاحظتْ زوجتي أنّني ساكنٌ مثلَ تمثالٍ لا يريم، تركتني وعادت إلى حجرة النوم لتستكملَ نومها، ولبثتُ في حيرتي وفي دوامةٍ عاتيةٍ من التساؤلات التي لا تنتهي. اقتربتُ أكثر وأكثر من اللَّوحة، ورحتُ أتأمَّلها بتمعُّنٍ أكبر. مددتُ أصابعي ولمستها. اقتربتُ منها أكثر، وشممتُها بأنفي، ثمَّ في آخر الأمر انتزعتها من مكانها. حملتها بيدي، وجلست على أقرب أريكة في الصالة. وطفقتُ أنظرُ إليها وأتحسّسها بأصابعي من جديد. لا أعرف لماذا شعرتُ كأنَّني أمسكُ الدنيا كلَّها بيدي. ربما كانت هذه اللَّوحة نقطة تحوُّل كُبرَى في حياتي، وربما تكون عكس ذلك. سمعتُ عن الرسَّام الهولنديّ فان غوخ من أساتذتي في معهد التربية الفنيَّة، وقرأتُ عنه نتفاً من مقالات هنا وهناك، ولكنَّني لم أكنْ أعرفُ اسم أيٍّ من لوحاته. قرأتُ معلومات عنه، ولكنَّني لستُ متخصِّصاً في الفنِّ وفي سيرِ الفنانين الذاتيَّة، رغم أنَّني درستُ الفنونَ لمدَّة سنةٍ، ولكنَّني أمضيتُ جلَّ هذه السنة في غيابات متكرِّرة عن المعهد هرباً من تكاليف إضافيَّة لمادة دراسيَّة متطلبة كانت تشكِّلُ عليَّ وعلى والدي عبئاً ماليّاً، وهرباً من دراسةٍ عقيمةٍ لا تسمنُ ولا تغني من جوع – كما كان والدي يردد على مسامعي – حتَّى هذه اللَّوحة لا أعرفُ عنها شيئاً إلّا ما قرأته عنها في مقالة قديمة في صحيفة أو مجلة لم أعد أتذكَّر من كلماتها شيئاً. ماذا تعني لوحة "زهرة الخشخاش"؟ والأهم كيف وصلت اللَّوحة إلى هنا؟

وحرتُ في كيفيَّة البداية. كيف سأبدأ مشواري مع هذه اللَّوحة؟

حاليّاً تنقصني بعض المعلومات، ولا بدَّ أنْ أثقِّفَ نفسي قليلاً عنها، وعن رسَّامها، وربما عن كلَّ لوحاته وحياته الشخصيَّة. شعرتُ بالعار من ضآلة معلوماتي. "المعرفةُ قوةٌ"، لا أعرفُ من أين سمعتُ هذه العبارة؟ لكن بدا مدى صحّتها الآن. وطرق قحف جمجمتي هذا السؤال المهم: من أين أحصل على هذه المعلومات؟ وبمَن أستعين؟ وجاءت الأسئلة المهمَّة، وربما كان هذا السؤال أهمّها: أين سأحتفظ بهذه اللَّوحة طوال بقائها بحوزتي؟ في البيت؟ لا أعتقد أنَّ هذا اختيارٌ صائبٌ. وانهالت عليَّ الفرضيَّات، فعندما يعلم الناس، كلَّ الناس، أنَّ في منزلي لوحةٌ تُقدَّر قيمتها بعشرات الملايين، فمَن سيضمن لي أنَّها لن تتعرَّض للسرقة؟

كانت ساعات الليل المتبقيَّة تمضي بسرعة. وكان لا بدَّ أن أضعَ حلولاً ناجعةً لخطواتي المقبلة قبل انبلاج نور الصباح. وتذكَّرتُ الحجرة الصغيرة التي حوَّلتها إلى مخزن للتوالف وبقايا الأشياء التي لا نحتاجها فوق سطح البناية. صحيح أنَّها حجرةٌ صغيرةٌ لكنَّها كانت متينة البناء، فهي لا تحتوي على نوافذ، وبابها من الحديد الثقيل القديم الصنع، ومساحتها ربَّما كانت ثلاثة أمتارٍ في ثلاثة أمتارٍ، وهي بالطبع مساحةٌ كافيةٌ لإخفاء "كنزي"، ولن أدعها على هذه الحال، فسوف أتفقَّد بناءها، وأغيِّر الباب القديم ببابٍ متينٍ،

وسأضعُ له أقفالاً كبيرةً وجديدةً، وفوق هذا لن يتوقّع أيُّ أحدٍ في العالم أنني سأخفي "كنزي" في مثل هذا المكان.

(١٠)

انتبهتُ إلى أنَّ اهتمامي المفاجئ بهذه الحجرة، وتغيير بابها، ووضع قفلٍ جديد لها ربما لفتَ أنظار صاحب البناية، ومالكها، وربما لفت نظر سكّانها، ويجعلهم يتساءلون عن سرِّ هذا العمل، فهذه الحجرة ليست مُلكاً لمستأجر بعينه، إنما هي لكل قاطني البناية، ولا يحق لأي أحد بحال من الأحوال أن يستأثر بها لنفسه. وقلت لنفسي إنَّه من الأفضل ألّا أغيِّر البابَ، وألا أضع له قفلاً، وبهذه الطريقة يلبث كنزي في أمانٍ ما دامت العيون مصروفةً عنه.

وتذكَّرتُ فجأةً، في غمرة انثيال التفاصيل، أنَّ البناية التي أسكنُ فيها مبنى قديم ومتهالك في حارة الباب المكتظة بالسكان وتوجد فيها ثلاث شقق، أسكنُ في إحداها، وفي الأسفل يسكنُ رجلٌ عجوزٌ، جندي متقاعد مع زوجته المريضة بالروماتيزم المزمن، ومصابة بالصمم، وتعاني من ضعف النظر، والشقَّة الثالثة مهجورة لا أحد يرغب في استئجارها بسبب تهالكها وانتشار النمل الأبيض في أرجائها، فضلاً عن الروائح الكريهة المنبعثة منها. وشعرتُ بنوع من الاطمئنان ولكن الحَذِرْ.

تناهى إلى سمعي صوتُ المؤذِّن معلناً أذانَ الفجر. من مسجد الراية القريب من هنا، نهضتُ من مكاني، وحملتُ

اللّوحة، وذهبت إلى الحجرة العلويَّة في السطح، فتحت الباب بهدوءٍ، فأصدر صريراً حطَّم سكون الفجر الوديع. وشعرتُ كأنَّ كلَّ سكَّان المدينة قد استيقظوا على هذا الصرير، فانقبض قلبي. لبثتُ واقفاً على الباب قليلاً محاولاً لمّ شتات نفسي، ثمَّ دلفت إلى داخل الحجرة، فوجدتها ممتلئةً ببواقي الأشياء التالفة. تذكَّرتُ الصورة التي انتزعتها من ألبوم زواج فيصل. وضعتُ اللَّوحة جانباً، ثمَّ رفعتُ المقعد الخشبي المكسو بالجلد الصناعي زهيد الثمن الذي يقعُ أسفله المجلة النسائيَّة. لا تزال على حالها، ملفوفة بكيس البلاستيك، فشعرت بالاطمئنان. فككتُ رباط الكيسَ واستخرجتها. فتحتُها من المنتصف، فوجدتها. أمسكتُ بها، ودنوتُ من لمبة السقف. اهتزَّ قلبي عندما رأيتُ الصورة الفوتوغرافية ولمحت زوجة فيصل بابتسامتها العذبة، وبلباسها العاري المثير الذي يكشفُ الجزءَ الأكبر من "كنزها". قلبتُ الصورة، فوجدت مكتوباً خلفها "منطقة البحيرات في بريطانيا". وتذكَّرتُ كلام فيصل لنا ذات يوم عندما قال: إنَّ عمَّه – والد زوجته – قد تكفَّل لهم بتكاليف رحلة شهر العسل بكاملها في منطقة البحيرات، رغم أنَّني لا أعرف مكان منطقة البحيرات هذه. أعدتها إلى باطن المجلَّة، ولففتُ عليها الكيس البلاستيك، وأرجعتها مكانها أسفل الكرسي. وضعت اللَّوحة بجانب مقعد جلدي آخر، في الركن الأيمن من الحجرة. كان مغطى بالغبار، فبدأت إخراج بعض الأثاث

المكسور لكي أخفَف من الفوضى الكبيرة التي كانت عليها الحجرة. وحرتُ أينَ أخبّئ اللَّوحة؟ درتُ ببصري في أنحاء المكان فلم أجد مكاناً يصلح لإخفائها. التفتُّ نحو اللَّوحة فلمحتُها مسنودةً على الأريكة الجلديَّة فخطر لي خاطرٌ ما. عدتُ إلى الشقَّة ماشياً على أطراف أصابعي مثل لصٍّ. أحضرتُ سكيناً من المطبخ، وعدتُ أدراجي إلى السطوح بهدوءٍ وأنا أدعو اللهَ في سرِّي ألا تصحو زوجتي في مثل هذا الوقت بالذات، فتنهار كلُّ خططي في إخفاء كنزي. وقرَّرتُ أن أدسَّ اللَّوحة داخل المقعد الجلديّ الذي يخفي أسفله صورة زوجة فيصل شبه العارية. ليس من مكان أفضل من هذا. سأجمع كنوزي الخفيَّة في مكان واحد. وابتسمتُ في نفسي عندما عنَّ لي هذا الخاطر. فككتُ بحرص الإطار الخشبيّ الرخيص المحيط باللَّوحة حتَّى يسهل إخفاؤها. شققتُ بالسكين الجلد المغلف للمقعد شقّاً طوليّاً. قطعتُ بعضَ الأسفنج حتَّى حصلتُ على فراغ يكفي لإيواء اللَّوحة داخل مساحة مربعة الشكل تستوعبُ طولها بالكامل. وضعتها مفرودةً دون إطارها الخشبيّ داخل الشقِّ الأسفنجيّ المتبقي، ثمَّ أعدتُ قطعَ الأسفنج ووضعتها فوق اللَّوحة لتشكِّل طبقة حماية حتَّى لا تتعرَّض للتلف. أعدتُ قطعة الجلد كما هي، وقرَّرتُ فيما بعد أن أحضر إبرةً وخيطاً كي أخيطَ قطعة الجلد المغلَّف للمقعد الخشبي، لكنني استبعدتُ هذا الفعل، ووجدتُ أنَّه من الأفضل استخدام الغراء في تلزيق قطعة الجلد حتَّى لا

تلفت خياطة المقعد العيون.

وخطرَ لي خاطرٌ: ماذا سأقول لزوجتي عندما تلاحظ اختفاء اللَّوحة؟ هل سأخبرها بقيمتها الفنيَّة والماليَّة والتاريخيَّة؟ والسؤال الأهم: هل سأضمنُ سكوتها وكتمانها السِّر، على الأقل، في الأيام المقبلة؟

وضعتُ بعض الإجابات المقنعة استعداداً لسؤال زوجتي المرتقب عن سر اختفاء اللَّوحة. سأقول لها مثلاً: إنَّني قد أعطيتُها لنجَّار ليصنعَ لها إطاراً مناسباً، أو سأقول لها: إنَّني قد وجدتُ لوحةً مناسبةً وأجمل كثيراً من اللَّوحة السابقة، فقرَّرتُ الاستغناءَ عنها.

وحرتُ فيما سأقوله لها، وما هو القول المقنع لها دون أن أثير شكوكها. أدرك حتماً أنني لن أحتفظ بالسرِّ كثيراً، وسأخبرها أطال الزمن أم قصر، ولكن عندما يحين الوقت المناسب. فمهما يكن، هي رفيقةُ دربي، وشريكةُ حياتي، وحبّي الأول والوحيد. كانت الابنة الكبرى من ضمن سبع بنات هنّ ذرية خالي – الأكثر فقراً من عائلتي والموظف البسيط في مكتب البريد – اللاتي أثقلن كاهله بطلباتهن ومشكلاتهن التي لا تنتهي. وافق على زواجي بها دون أي تردد كأنه أراد التخفّف قليلاً من حمله الثقيل. كان زواجنا قليل المؤونة ومقتصداً في تكاليفه لكنه شعّ بالسعادة والفرحة في كلتا العائلتين، وكان الاستقرار من نصيبه، لذلك لن أقدرَ على إخفاء الأمر عنها وقتاً أطول من المعتاد.

صدري لنْ يتَّسع لمثل هذا السرِّ الكبيرِ.
سأدعُ، الآنَ على الأقل، هذا الأمرَ للظروفِ المناسبة، وسألتفتُ إلى ما هو أهم.
ما إن انتهيتُ من عملي حتَّى سمعتُ إمام الجامع يبدأ أداء الصلاة. أقفلتُ باب الحجرة. وانقبض قلبي عندما اضطررت إلى عدم إقفال الباب بقفل، وأدركتُ أنَّني سأكونُ دوماً فريسةً للقلقِ ما دام البابُ غيرَ مؤمَّنٍ بقفلٍ يحمي كنزي من الانكشاف، أو العبث. لمحتُ في الأفق الشرقيِّ بزوغ نور الفجر الباهت. وقرَّرتُ أنْ أدعَ كلَّ شيءٍ كما هو الآن – على الأقل في الوقت الحاضر – ريثما أجدُ حلاًّ ناجعاً لهذه المعضلة. نزلتُ من سطح البناية على عجلٍ، واتَّجهتُ إلى الشقَّةِ وتوضَّأتُ، ثمَّ ذهبتُ لأداءِ صلاةِ الفجر، ربما لأوَّل مرَّة منذُ شهورٍ طويلةٍ!

(١١)

مكَّة المكرَّمة، ٢٢/٨/٢٠٠٣

لنْ أذهبَ إلى الدَّوامِ اليومَ، فلتذهب الشركةُ إلى الجحيمِ!

سأطلبُ من رئيسي – وليذهب هو الآخر إلى الجحيم – في العمل إجازةً لمدَّة شهرٍ حتَّى أتفرَّغَ لحماية كنزي، وأفكِّر في كيفيَّة الاستفادة منه، ولن ألتفتُ إليه إذا رفض منحي إجازةً. وتذكَّرتُ أنَّ رصيدي من الإجازات يسمحُ لي بالتمتُّع بإجازتي في أيِّ وقت أشاءُ، خصوصاً أنَّني من الموظَّفين الملتزمين المحافظةَ على سير العمل، ومن أولئك الموظَّفين القليلي الغياب أو الاستئذانات. عنَّ لي أنْ أتلفنَ لفيصل وأطلب منه أنْ يدعَ الأمرَ سرّاً بيني وبينه، وألا يفشي السرَّ لأيِّ أحدٍ مهما كان السبب. أمسكتُ بالجوَّال، وبحثت عن اسمه، واتَّصلتُ... لبث الجوَّال يرنُّ حتَّى انقطع رنينه ولم يجبْ! وعزوتُ الأمرَ إلى أن الوقت غير مناسب، فنحن في الصباح الباكر، وربما لا يزال نائماً. نظرتُ إلى ساعتي: كانت تشير إلى السابعة وعشر دقائق صباحاً. أقفلتُ الجوَّال حتَّى لا اضطر إلى الإجابة على الاتِّصالات التي سوف تنهال من زملائي في العمل، أو من رئيسي، مستفسرةً عن سبب غيابي عن الشركة اليوم. كنت حائراً في ماهيَّة الخطوة المقبلة، ومثل هذه الاتِّصالات ربما تربكني، وتشوِّش

تفكيري.

قرَّرتُ أنْ أذهبَ إلى المكتبة العامَّة؛ لديَّ رغبةٌ شديدةٌ في الاطِّلاع على معلومات أكثر عن الرسَّام فان غوخ ولوحاته، التي من ضمنها لوحته التي بحوزتي الآن. لكنّني لا أعرفُ أين مكان المكتبة العامَّة، فلم يسبق لي أن رغبت في الذهاب إليها، ولم أفكِّر يوماً في زيارتها، ولا أعرفُ هل هناك مكتبةٌ عامَّةٌ في مكَّة. لكنَّني قرأتُ أو سمعتُ أنَّه توجد مكتبةٌ عامَّةٌ، لكن أين مكانها بالتحديد؟ لا أعرف!

ركبتُ سيَّارتي، وطفقتُ أدورُ الشوارع بلا هُدى. سألتُ أشخاصاً عن مكانها، فوجدتُ أكثرهم لا يعرفون مكانها ولم يسمعوا بها من قبل. لكن رجلاً قال لي ربما هي في حي الزاهر فابحث هناك. لكنني فكَّرتُ في الذهاب إلى الجامعة عوضاً عن ذلك، وتحديداً إلى كليَّة التربية الفنيَّة. حتماً سأجدُ بينهم دكتوراً، أو محاضراً، أو أستاذاً يكون لديه العلم الأكيد عمَّا أبحثُ عنه. غيَّرتُ اتَّجاهي نحو الجامعة. وصلتها في حوالى العاشرة صباحاً. ركنتُ سيَّارتي في أحد المواقف وأخذتُ طريقي إلى الدَّاخل. سألتُ أحد الأشخاص عن قسم التربية الفنيَّة، فقال لي إنَّه في قسم التربية الذي يقع في مبنى آخر، ووصف لي المكان، شكرتُه وغادرتُ من فوري.

في الطريق، حاولتُ ترتيبَ أفكاري، فماذا سأقولُ لدكتور أو بروفيسر مختص عن اللَّوحة الثمينة التي أمتلكها؟ هل أقول له: أخبرني ما تعرفة عن لوحة فان غوخ "زهور

الخشخاش"؟ هل أقول له إنَّ في بيتي لوحةً من لوحات هذا الفنان وأرغب في عرضها عليك لتخبرني هل هي أصليَّة أم مقلَّدة؟ كيف سيردُّ عليَّ؟ وماذا سيكون ردّ فعلِهِ؟

اللعنةُ... اللعنةُ!

منذ دخلتْ هذه اللَّوحة في بيتي وفي أقلِّ من أربع وعشرين ساعة وأنا لا أكفُّ عن طرح الفرضيَّة تلو الفرضيَّة، والسؤال تلو السؤال، ولا جواب! ولا أعرفُ ماذا أفعل ولا كيف أبدأ!

لن أطيقَ تحمُّل هذا الأمر على كاهلي وحدي. من هو جدير لأعطيه سرّاً خطيراً مثل هذا السِّرِّ؟

تعبتُ من التفكير الحثيث والمتواصل وأنا لا أزال في أوّل الطريق.

(١٢)

بمثل هذه الأفكار المتصارعة داخل عقلي، قدت سيَّارتي نحو كليَّة التربية. أوقفتُ سيارتي في مواقف الكليَّة المزدحمة بالسيارات، ودلفت إلى المبنى. عن طريق اللَّوحات الإرشاديَّة التي كانت منتشرة في الردهات، قادتني خطواتي نحو مقر هيئة التدريس. كانت في الدور العلوي بينما قاعات المحاضرات وورش الرسم والأشغال في الدور الأرضي. وجدتُ نفسي واقفاً أمام بابٍ خشبيٍّ مثبتٍ في أعلاه لوحة مستطيلة الشكل مكتوب عليها: هيئة التدريس، قسم التربية الفنيَّة. طرقتُ الباب ودخلتُ، ولدهشتي وجدتُ الحجرة الواسعة خاليةً. لا يوجد فيها أيُّ شخص. شعرتُ بخيبة الأمل. ولا أعرفُ كيف خطر لي أنَّ هذا ما هو إلّا رسالة ربانيَّة لي بألّا أخبر أحداً عمَّا أملكه من كنز. لكنّني طردتُ هذا الخاطر من رأسي، وعدتُ إلى ما أنا فيه. ووقفتُ في منتصف الحجرة أقرأ اللَّوحات التعريفيَّة المثبَّتة على المكاتب الضخمة اللامعة:

الدكتور: إبراهيم خليل، أستاذٌ مشاركٌ قسم التربية الفنيَّة.

الدكتور: ماجد غريب، أستاذ التصوير التشكيلي، قسم التربية الفنيَّة. وسألت نفسي: ماذا يقصد بالتصوير التشكيلي، فلم أحر جواباً. يبدو أنَّني نسيتُ كلَّ ما تعلَّمته

سابقاً في كليَّة التربية الفنيَّة. وتابعتُ القراءة.
الدكتور: مبارك صادق، أستاذ تاريخ الفن، قسم التربية الفنيَّة. وتوقَّفت كثيراً عند كلمة: "تاريخ الفن". قلت لنفسي: ربما هذا هو مَن سيكون ذا فائدة لي، فأنا أبحث عن تاريخ لوحة، وعن سيرة فنان.
لبثتُ وقتاً لا بأس به أنتظرُ قدومَ أيِّ شخص، فلم يأتِ أيُّ أحدٍ. تناولتُ قلماً من جيبي، واقتربت من مكتب مَن يُسمَّى الدكتور مبارك صادق. تناولتُ ورقةً بيضاءَ من فوق مكتبه الممتلئ بالكتبِ، والمراجعِ، والمجلاتِ الثقافيَّةِ المتخصِّصةِ، ودوَّنتُ اسمه عبر اللَّوحةَ المكتوبة على مكتبه. وغادرتُ المكان. قبل خروجي رأيتُ لوحةً معلَّقةً على الجدار بجانب الباب، مغطاةً بالزجاج، ومدّون فيها أسماء الدكاترة في القسم، وأمام كلِّ اسم سيرةٌ ذاتيَّةٌ مختصرةٌ، بالإضافة إلى رقم التلفون والبريد الإلكتروني لكلِّ واحد منهم. شعرتُ بنوع من الفرح، وخطر لي خاطرٌ: لماذا لا أراسلهم بواسطة البريد الإلكتروني؟ فهذا سيوفِّر عليَّ الكثير من الحرج. أخرجتُ جوَّالي من جيبي. وجدتُه مقفلاً، ففتحتُه، ودخلتُ على أيقونة الكاميرا، ثمَّ التقطتُ صوراً للَّوحة التي تحملُ أسماءهم، وأرقام التّواصل معهم، وعناوين بريدهم الإلكتروني. شعرتُ بالارتياح، ثمَّ غادرتُ المكان على عجل.
في الطريق، شعرت بالاستياء، فقد تذكَّرتُ أنَّني لا أملك جهاز كمبيوتر، ماذا سأفعل؟

أصبح وجود جهاز الكمبيوتر ضروريّاً لي الآن. ولكنني لا أملك ثمنه حاليّاً، وسعره غالٍ جداً، وربما الفئة ذات المواصفات المتوسطة والمحدودة الجودة منه تعادل راتب شهر من رواتبي. لا قدرة لي على توفيرِ المال اللازم لشرائه. هل سأقترضُ مبلغاً من المال لأشتريه؟ ولكن... مَن سيقرضني هذا المبلغ الكبير؟ فكَّرتُ في فيصل صديقي فتذكَّرتُ ربَّما أنَّه لا يملك حاليّاً سيولة نقديَّة كونه اشترى أثاثاً مستعملاً لبيته وسوف يستدعي زوجته لتكون معه. وحينما تذكَّرتُ صورتها المختلسة وشبه العارية، انتفض قلبي. عدتُ إلى ما أنا فيه من حيرة. فكَّرتُ في زوجتي، ولكنَّني أعلمُ تماماً أنَّه لا يتوفَّر لديها مثل هذا المبلغ، إلّا إذا باعت شيئاً من مصاغها القليل، ولا أعتقدُ أنَّها سوف تبيع قطعاً من ذهبها مقابل جهاز كمبيوتر. حسبتُ بشكل آليٍّ بقيَّة الأيام التي تفصل عن موعد استلام الراتب الشهريّ، فوجدتُ أنَّها ستة عشر يوماً. هل سأصبرُ كلَّ هذه المدة الطويلة لاستلام الراتب الشهري؟ حتَّى الراتب الشهري لن يكفي مع بقيَّة التزاماتي الشهريَّة الكثيرة، فهناك صاحبُ البقَّالة، وهناك الإيجارُ الشهريُّ، وهناك الميكانيكيُّ، والغسَّالُ، وفواتيرُ الكهرباءِ و... و... إلخ.

إذا أردتُ الحصولَ على جهاز كمبيوتر، فسأكونُ مضطراً ألا أسدِّدَ جزءاً من هذه الالتزامات إضافة إلى اقتراض مبلغٍ قليلٍ من المال؛ ما يعني أنَّها ستكون مضاعفةَ القيمة في

الشهر المقبل، وهذا فوق طاقتي الماليَّة بكلِّ تأكيد. وشعرتُ بالغيظ يتصاعد في صدري، وأدركتُ إلى أيِّ مدى أنا رجل مطحون وفقير لا أملكُ من الحياة شروى نقير. كنتُ أبحثُ عن سيَّارتي في مواقف الجامعة عندما أخرجني من قتامة هذه الأفكار التي بدت تغزوني رنينُ هاتفي المحمول. أخرجته من جيبي، ونظرتُ في شاشته، فإذا هو اتِّصالٌ من فيصل:

- أين أنتَ يا رجل؟

- في الجامعة.

- جامعة! أيّ جامعة؟ وماذا تفعل هناك؟

- ....

التزمتُ الصمتَ، ماذا أقول له؟

لكنَّه لم يتركني:

- أين أنتَ الآن بالتحديد؟

- في السيَّارة، في طريقي إلى البيت.

- اسمع يا صديقي، سأمرُّ عليكَ عصر اليوم، اتفقنا؟

- .....!

- هل تسمعني؟

- نعم.

- هل تسمح لي بلقائك؟

- نعم، بكل تأكيد.

وأنهى المكالمة. قلتُ لنفسي:

- ماذا يريد مني؟ هل ستكون زيارته بسبب اللَّوحة التي

أخبرني أنّها إحدى لوحات فان غوخ الثمينة؟

ليس هناك من حديثٍ يستحقُّ الخوض فيه سوى الحديث عن هذه اللَّوحة الثمينة.

قلتُ لنفسي متفكِّراً أنَّني بكلَّ تأكيدٍ لن أستطيعَ حملَ هذا الأمر وحدي، فوجود شخصٍ مثل فيصل سيكون مهمّاً لي في مثل هذه الظروف. فهو رجلٌ هادئُ الطباع، قليلُ الانفعالِ، يوزن أفعاله وكلماته قبل الإتيان بها. سنناقشُ الأمرَ من مختلفِ الوجوه، ونضعُ الحلولَ المناسبة له، وربما ساعدتني أفكاره، ورأيه الذي دائماً ما يكون صائباً في تجاوز هذه اللحظات المربكة.

وشعرتُ – لأوَّل مرَّة – بنوع من الارتياح منذُ الأمس حتَّى هذه اللحظة.

(١٣)

حالما فتحتُ باب البيت، وجدتُ زوجتي بانتظاري وعلى ملامحها تبدو الحيرة والغضب أيضاً. استقبلتني عند الباب، ثمَّ أمطرتني بأسئلتها المتلاحقة:

- أين كنت؟ وأين اللَّوحة؟ وماذا حدث لك؟ لماذا تبدو مهموماً مغموماً؟ ومَن الذي اتصل عليك فجر اليوم؟ هل هي امرأة؟ ماذا تريد منك؟

ةقبل أن تستمر في دلق أسئلتها المتسارعة، قلت لها بهدوء مخلوط برجاء:

- اسمعيني. أحتاج مبلغاً من المال بصورة عاجلة.

وصمتت عن طرح أسئلتها. حدجتني بنظرةِ شكٍّ وريبةٍ قبل أن تقول:

- وماذا تريدُ بالمال؟

- أحتاجه لشراء جهاز كمبيوتر.

- جهاز كمبيوتر! في مثل هذه الظروف؟

- أحتاج مبلغ أربعة آلاف ريال بسرعة، أرجوكِ ساعديني.

- وما هو هذا الأمر العاجل؟ ومن أين لي بمثل هذا المبلغ الكبير؟

- ما رأيك أن نبيع قطعة من مصاغكِ وذهبكِ وسأتعهَّد رد المبلغ لكِ في أقرب وقت!

- لا، لن أبيع ذهبي من أجل جهاز كمبيوتر! هناك في ظروفنا الصعبة ما هو أهمّ من شراء كمبيوتر.

ثمَّ مضت غاضبة في طريقها إلى المطبخ.

شعرتُ بخيبةِ الأمل. ألقيتُ نفسي على أقرب كنبةٍ متعباً بسبب الإرهاق الجسديِّ والنفسيِّ. نعم، كنتُ متعباً ولا أزال. وشعرتُ بالنعاس يداعب جفنيَّ. لم أشعر بنفسي إلّا بيدٍ تهزُّ كتفي، ففتحتُ عينيّ ببطءٍ لأجدَ زوجتي تقول لي:

- الغداءُ جاهزٌ.

نهضتُ بتثاقلٍ. ذهبت إلى الحمَّام وغسلتُ وجهي ويديَّ، واتَّجهتُ صوبَ طاولة الطعام وسط نظرات زوجتي المستغربة والمتسائلة من وضعي اللافت للنظر. تناولتُ غدائي ساهماً، ثمَّ نهضتُ سريعاً. غسلتُ يديَّ، ثمَّ اتَّجهتُ إلى غرفة النوم، ولم أحتجْ إلى وقتٍ طويلٍ حتَّى غرقتُ في النوم.

استيقظتُ على رنين الهاتف الحثيث. تناولتُ جوَّالي. كان على الخط فيصل يخبرني بأنَّه ينتظرني في سيَّارته أسفل البناية. ألقيت نظرة عجلى على وجهي في المرآة المعلقة على التسريحة في حجرة النوم، ولبستُ ثوبي المعلّق على المشجب المعدني، وخرجتُ من البيت. ركبتُ في سيَّارة فيصل، واتَّجهنا إلى أحد المقاهي التي تقع بعيداً قليلاً عن المدينة، على الطريق السريع الرابط بين مكة وجدة.

طوال الطريق اكتفينا بالصمت، كأنَّنا نقيسُ كلامنا قبل النطق به. في المقهى البعيد، ومع أقداح الشاي والشيشة،

قلنا الكثير من الكلام، وطرحنا الكثير من الآراء، وتجادلنا كثيراً في موضوع اللَّوحة، ولكنَّ النقاش برد قليلاً عندما طرحتُ على فيصل سؤالاً مباغتاً:

- ما الذي يضمن لنا أنَّ هذه اللَّوحة أصليَّةٌ؟ ماذا إذا كانت مقلَّدةً؟

ولم أترك له فرصةً للجواب، فعاجلته بالسؤال:

- هل أنتَ متأكِّدٌ يا صديقي أنَّ هذه اللَّوحةَ أصليَّةٌ؟

- سأضعُ احتمالاً: خمسين بالمئة أنَّها اللَّوحة الأصليَّة، والخمسين بالمئة الأخرى أنَّها مقلّدةٌ.

- .....

- اللَّوحة الأصليَّةُ لا زالت مسروقة حتَّى يومنا ولم يُعثر لها على أثر.

- وماذا سنفعل لنتأكَّد من كونها أصليَّةً أو مقلَّدةً؟

- سنعرضها على الخبراء؟

قال تلك الكلمات وهو ينفث من فيه دخانَ الشيشة الكثيف.

- ومَن هم هؤلاء الخبراء؟ وأين سنعثرُ عليهم في رأيك؟

- سنلجأ إلى الفنانين التشكيليين وأصحاب الاختصاص في البلد، ونستأنسُ برأيهم وخبرتهم.

- وكيف سنلتقيهم؟

- سنذهب لهم أنا وأنت ومعنا اللَّوحة بالطبع.

- وإذا لم يفدنَا أحدٌ منهم بحقيقة اللَّوحة؟

- حينئذ سنلجأُ إلى الخبراء خارج البلاد.

- مستحيل!
- ولماذا مستحيل؟
- لأنَّنا بكلِّ بساطة لن نستطيعَ إخراجها من البلد دون أن نلفتَ الأنظار، وخصوصاً بعد أن يعرفَ الناسُ – كلّ الناسِ – بحكاية اللَّوحة التي بحوزتي.
- لا زلنا في مرحلة الشَّكِ يا صديقي.
- .....
- كنْ صادقاً معي يا صديقي، وأخبرني بربّك ما الذي يجعلك أنت – بالذات – متأكِّداً أنَّ اللَّوحةَ التي معي هي لوحةٌ لفان غوخ، وأنَّها أصليَّةٌ؟

شرب جرعة من الشاي قبل أنْ يقولَ لي بهدوء:

- سنعرفُ عاجلاً أو آجلاً عن حقيقة هذه اللَّوحة.
- أنت قلت لي إنَّها لوحةٌ مسروقةٌ.
- نعم.
- مِن مَنْ سُرقت؟ ومِن أينَ؟
- مِن القاهرة، من متحفٍ خاصٍّ بأحد رجال الأعمال المصريين يُدعى محمد محمود خليل.

كان يتكلَّم بيقينٍ وثقةٍ أثارت حيرتي واستغرابي. سألته:

- متى سُرقت؟ ومَن سرقها؟ ومِن أين لكَ كلّ هذِه المعلومات؟
- الحكايةُ طويلةٌ، وسأحكيها لكَ بكلِّ تفاصيلها.

لجمتني ثقتُه وهدوءُ وبرودُ أعصابه. نظرتُ إليه متفكِّراً. لا

أعرفُ لماذا شعرتُ أنّه يخفي أشياء كثيرة عنّي خلف صمته وشروده المريب. وانثالت الأفكار والظنون في رأسي بشكلٍ أشدّ من السابق، ليست الظنون وحدها، بل بدأتُ أشعرُ بالخطرِ يحيط بي من كلِّ جانبٍ.

(١٤)

القاهرة، ١٩/٣/١٩٧٧

وهو في القاهرة يتذكَّرُ سنوات عمره الأولى في نجع حمادي. لا ينسى تلك السنوات القليلة. لا تزالُ لابدةً في تجاويف ذاكرته. أكثر ما يشعره بالحنين هو عندما كان يمشي وحيداً نحو حقول قصب السكر المحيطة بالنجع. كانت أقصى مُتعُة هي التجوُّل في الحقول المنبسطة أمام بصره، والمرور من فوق الجسر الذي يمرُّ من فوقه قطار الصعيد. يمرُّ في طريقة بقصر الأمير يوسف كمال، أحد أمراء محمد علي باشا، الذين حكموا هذا المكان منذُ زمن بعيد. يرى في مجال بصره شركةَ الكرَّاكات الخاصَّة بالإصلاح الزراعيّ في الخضيرات. يسيرُ بالخطوة السريعة. يحاذي في طريقه مدرسته التي يدرسُ فيها. يلمح اسمها الباهت الحروف مكتوباً على لوحة من الخشب: مدرسة الخضيرات الابتدائيَّة. كانت عادة المشي والهرولة وتمارين المرونة هذه تتم تقريباً كلَّ يومٍ للمحافظة على لياقته البدنيَّة. كان أبوه يحثُّه على ممارسة المشي بالخطوة السريعة أو لعب الكرة مع رفاقه في النجع. إذا توقَّف يوماً، أو يومين عن ممارسة الرياضة، كان والده يذكِّرُه:

- لا تنسَ حصَّتكَ التدريبيَّة يا رؤوف.

أبوه قَبِل على مضضٍ العملَ في نجع حمادي لكنّه منذَ جاء إلى النجع كان يتقدَّم بطلبِ النقل إلى القاهرة كلَّ عامٍ. لم ييأسْ حتَّى جاء في آخر الأمر. جاءت الموافقة على نقله بعد انتظار دام تسعة أعوام. حتَّى بعد مرور سنوات، يتذكَّرُ أوَّل لحظات قدومه من نجع حمادي إلى القاهرة، برفقة والده، وأمِّه، وأخواته الثماني. كان حينذاك في العاشرة من عمره وبرفقة أبيه الذي يعمل في مصنع للألمنيوم، الموظَّف الذي يعولُ أسرةً مكوَّنةً من تسعة أفراد، كان ترتيبه الرابع بينهم.

كان دائماً ما يردِّدُ ألا مكانَ له في النجعِ. هو قاهريٌّ المنشأ والولادة، ولن يتخلَّى عن هذا الامتياز، كما كان يردِّدُ والده دائماً.

عاد والده إلى القاهرة. عاد إلى حيثُ يكون الصخب، والزحام، والحياة المتجدِّدة والمنفتحة على العالم. حالما وصل القاهرة مع أبيه، أصابه الانبهار برتم الحياة السريعة، والصاخبة، واللاهثة. ولكنَّه كان يبدو على أهبة الاستعداد للاندماج في أتون سير الحياة، في هذه المدينة الكبيرة، والواسعة، والمثقلة بالتاريخ والحوادث المهمَّة التي لا تنتهي.

في المرحلة الإعدادية ثم الثانوية، وبتشجيع من أبيه، أحبَّ وعشقَ ألعاب الجمباز. جسده المتماسك والمختصر مكتنزٌ بالعضلات والمرونة في الوقت نفسه. طالما حصد الجوائز في المسابقات الرياضيَّة التي كانت تُنظَّم بين مدارس

القاهرة، ثمَّ في الجامعة. مع الأيام والاهتمام بالتمارين الرياضيَّة النوعيَّة تناسق جسده بشكلٍ ملموسٍ.

ولكنَّ كلَّ شيءٍ تغيَّر الآن. مضت أيامُ الدراسة الثانويَّة، والتحق بكليَّة الفنون الجميلة بجامعة حلوان. فاجأ بقراره أسرته. كانوا يطمحون أن يلتحقَ بإحدى كليَّات التدريب الرياضي. لم يثنِهِ أحدٌ عن اختياره. كان والده من النوع الذي يسمح باختيار المصير لأبنائه. في كليَّة الفنون الجميلة، عرفَ الكثيرَ والكثيرَ. كانت أفكاره نحو الفنون عامَّة محدودةً، وقدراته لا بأس بها، ولكنَّه تثقّف نفسه فنيّاً. قرأ الكثير عن الفن ومدارسه، وعن كبار الفنانين وأعمالهم. درس كلَّ ما وقع تحت يده من نقدٍ فنيٍّ موجَّهٍ إلى أشهر لوحات أولئك الفنانين الكبار، وفي نهاية الأمر، تخرَّج بتقدير جيّد، ولكنَّه كان إنجازاً بالنسبة إليه.

حصل على وظيفة بتوصية من أحد أصدقاء والده في متحف محمد محمود خليل، الدبلوماسيّ، ورجل الأعمال الشهير والغنيّ، الذي كان يعيش في باريس. كان عاشقاً للفنِّ التشكيليِّ. زار العديدَ من المدن والمتاحف، واقتنى عدداً لا بأسَ به من لوحات شهيرة لفنانين عالميِّين كبار. تزوَّج امرأةً فرنسيَّة تدعى إميلين هيكتور شاركته الاهتمام نفسه. استطاع بثروته أنْ يقتني أثمنها وأكثرها قيمة تاريخية من سماسرة اللَّوحات، ومن المزادات المعروفة التي تقام في باريس ولندن ونيويورك وطوكيو. كان يشتري لوحاتٍ

عالميَّةَ شهيرة، ثم ينقلها إلى القاهرة، وخصَّصَ لها مكاناً في قصره، لكنَّه مع مرور الوقت وازدحام اللَّوحات في القصر قرر أنْ يبني فيلا يعيشُ فيها برفقة زوجته، وأن يجعل القصر القديم متحفاً للوحاته، وقرر أن يكون مفتوحاً للزوَّار من عشَّاق فنون الرَّسم والتشكيل. لكنْ في اللحظة الأخيرة قرَّر الزوّجان – بتسهيلات حكوميَّة – تغيير الفيلا بقصر الأمير المملوكي عمرو إبراهيم، القصر التاريخيّ الشهير في منطقة الزمالك. مات صاحب المتحف عام ١٩٥٣، بعد أن أوصى زوجته أن يؤولَ المتحف بكامل مقتنياته إلى الدولة، وأن يكون مفتوحاً لجميع عشَّاق الفنون. افتتح المتحف في ١، ثمَّ أُعيد افتتاحه مرَّة أخرى بعد خمسة عشر عاماً، تحديداً في ١٩٧٦، في قصر محمد محمود خليل القديم، بعد أن لاحظ القيِّمُون على المتحف أنَّ القصرَ المملوكيَّ التاريخيَّ لا يمكنُ تزويده بوسائل الحماية الكافية. أُعيدت كلُّ محتوياته إلى القصر القديم بعد أن تمَّ وضع بعض وسائل الحماية اللازمة.

تمّ تعيينه دليلاً سياحيّاً للمتحف، ومع مرور السنوات أصبح المتحفُ قِبلَةً للزوَّار من مختلف أنحاء العالم، وخصوصاً من المهتمِّين بالفنون التشكيليَّة. باع والده أرضاً له في الفيوم عندما أصرَّ أنْ يتزوَّجَ بزميلته في الجامعة التي كان لها الأثر الأكبر في تغيير اتجاهاته وميوله من الرياضة إلى الفنون، واستأجر له شقَّةً صغيرةً في البناية نفسها التي

يسكنُ فيها. كانت كلُّ مطالبه تُنفّذ بلا نقاش، ربما لأنّه الذكرُ الوحيدُ بين أخواته البنات. لم تمضِ سنةٌ حتَّى رُزق بابنةٍ جميلةٍ سمَّاها مها على اسم والدته المتوفاة. كان يرافقُ الوفودَ السياحيَّة، ويشرح لهم تاريخَ هذه اللَّوحة أو تلك، مع نبذةٍ بكلماتٍ معبِّرة عمن رسمها. وباحتكاكه مع سيَّاح يأتون من مختلف دول العالم، طوَّر لغته، فكان يتحدَّثُ الإنكليزيَّة، والفرنسيَّة، وشيئاً من الألمانيَّة. يعرفُ الكثير من الكلمات من لغات مختلفة تخدمه في عمله كدليل سياحيٍّ. في أوقات فراغه، كان يتأمَّل اللَّوحات التي جلبها صاحب المتحف واشتراها من مختلف دول العالم. والتقى بكثيرٍ من الفنانين المصريّين والعرب، ومن كلِّ أرجاء الكُرةِ الأَرضيَّةِ. كانت متعته تصلُ ذروتها عندما يرافق الفنانين وكبار الزوَّار في جولاتهم في المتحف، يستمعُ لما يقولونه بشغفٍ، وفي نهاية اليوم، كان يدوّن ما سمعه منهم في دفترٍ ممتلئ بالصفحاتِ المكتوب فيها بخطٍّ جميلٍ معلومات وافرة عن كلِّ فنَّان وكل لوحة. كان يلحظُ أنَّهم دائماً ما يتوقَّفُون طويلاً أمام لوحة صغيرة مقاسها ٥٣ سم في ٥٤ سم. كانت تقعُ في الدور الثَّاني في منتصف صالة العرض الواسعة. عرفَ أنَّها إحدى أهمّ لوحات الفنان الهولندي فان غوخ، وأنَّ اسمها "زهور الخشخاش". يعرفُ أنَّ سعرها يساوي العشرات من الملايين من الدولارات. ليس هذا فحسب، بل كان يستمعُ اتوجيهات القيِّمين على المتحف المشدَّدة بمنع الزوَّار من لمسها أو

الاقتراب منها أكثر من اللازم. عرف الكثير، بل عرف أكثرَ ممَّا يجبُ.

(١٥)

مع اتِّساع مساحة المتحف بطوابقه الثلاثة، وتكدُّس اللَّوحات التي قاربت ثلاثمئة لوحة وتمثال، قرَّرتُ مالكةُ المتحف السيدة إميلين أنْ تستعينَ بعددٍ من الموظَّفين، بعضهم يخصَّص للحماية، والبعض لمرافقة الوفود السياحيَّة بغرض تقديم الشروح وبعض المعلومات عن مقتنيات المتحف للزوَّار. في سبيل ذلك، عيَّنت صاحبة المتحف ستة موظَّفين جدداً، أربعة منهم للحراسة والحماية، واثنان كأدلاء سياحيّين بعد أن تم تدريبهم في معهد مختص لمدة أسبوع. كان هذا يعني أنَّه سوف يكون هناك اثنان آخران يعملان معه، يرافقون الزوَّار، ويستعرضون بمعرفتهم تاريخ مقتنيات المتحف. لا يعرفُ مشاعره في تلك اللَّحظة، هل يفرحُ لأنَّ الحِملَ سوف يخفُّ عنه قليلاً، أو سيشعر بالغضب لأنَّه سيكون هناك مَن سيشاركه في عمل يحبُّه ويعتزُّ به!

اقترب منه في اليوم الأوَّل واحدٌ من الموظفين الجدد، كان طويل القامة، أجعد الشعر وله عظام فك بارزة، مدَّ إليه يدَه مصافحاً وعلى وجهه ابتسامةٌ كشفتْ عن أسنانٍ مصفرَّةٍ بسبب التدخين:

ـ محسن الرمَّال.

لم يمد يدَه سريعاً، وطفق يتأمَّل هذا الوجه غير المريح ذا

السُمرة الداكنة والعينين الضيقتين، لكنّه مدَّ يدَه في آخر الأمر، عندما لاحظَ استمرار ابتسامةِ زميله في العمل. شعرَ بالحرج ثمَّ قال:

- رؤوف سعيد.

بعد هذا اللقاء كلُّ شيءٍ انقلب رأساً على عقب!

في غضون أسابيع قليلة، طوى محسن الرمَّال، بكلِّ وسيلة، رؤوف تحت جناحيه. طاف به أوكارَ الكيفِ، وذاق معه طعم النساء اللواتي كُنَّ لا يشبهنَ زوجته لا في الأفعال ولا في الكلام على الإطلاق! كُنَّ كثيراتٍ ومتنوِّعاتٍ، ولكلِّ واحدةٍ منهنَّ ميزةٌ وطعم آخر، كما كان يردِّدُ دوماً. في بيوت المومسات، كان يصرفُ كلَّ معاشه الشهريِّ عليهنَّ، وعلى الحشيش، وكلَّما استزادَ، وجد نفسه يوغلُ أكثرَ وأكثرَ حتَّى أصبح راتبه الشهريّ لا يكفي. لكن محسن كان ينفق مبالغ ماليّة على تلك المُتع تفوق راتبه الشهري الضئيل. أثار هذا الأمر استغراب رؤوف، وفي سهرة من السهرات الحمراء يذكر أنه سأل محسن: من أين لك كل هذا المال وأنت مجرد مرشد ودليل سياحي في متحف؟ ابتسم محسن وقال له إن لديه أخاً يكبره يعمل مدرساً في الكويت ويحصد الكثير من المال. كان سخيّاً معه فيرسل إليه وإلى أمهما المال في حال طلبه منه. وحينما سأله مرة أخرى ليتعرّف أكثر على رفيق السهرات والنساء: طالما لديك كل هذا، فلماذا تعمل دليلاً في متحف خاص براتب زهيد؟ حينذاك لمعت عينا محسن ببريق

غريب وهزّ رأسه ولم يتفوه بحرفٍ واحد.

ما أدهشه أكثر أنّ محسن كانت لدية شقَّة في بناية قديمة في حي الكيت كات، صغيرة المساحة لكنها أنيقة ومؤثثة بأثاث لا يخلو من لمسة جمال وتقع على بعد أمتار قليلة من شارع مراد أهم شوارع الحي. كان يستقبل فيها رجالاً تبدو عليهم سيماء النعمة والترف. يجيئون بسيارات فارهة غالية الثمن، ويصطحبون معهم نساء، لسنَّ كالنساء اللواتي يأتين إلى الشقّة بطلب من محسن، بل كنَّ نساء لامعات، مشرقات. أحياناً يرطن بلغة أجنبية، كنَّ يدخلنَّ الشقَّة وتسبقهن رائحة عطورهن الغالية الثمن التي تتضوع في المكان. كان أولئك الزوّار يحضرون معهم قناني من خمور غالية الثمن، وحشيشاً نقياً يُجلب من لبنان. والغريب أنَّه كان يراهم أيضاً وعلى مدد متباعدة في المتحف. يعرفهم بوجوههم وليس بأسمائهم، يأتون كزائرين يتأملون اللوحات والمقتنيات ثم يغادرون بهدوء، كما جاؤوا.

سمعهم يتحدثون أكثر من مرة مع محسن حينما تشتعل السهرة وتلعب الخمرة بالعقول عن لوحات ومقتنيات المتحف، يحتدم النقاش بينهم وترتفع أصواتهم ولكنهم كانوا يتحدثون أكثر عن لوحة فان غوخ "زهور الخشخاش". يقاربون بين رؤوسهم ويتكلمون وعيونهم تلمع مثل عيون الثعالب. ومع تنفّس الصباح يغادرون الشقّة بهدوء. يركبون سياراتهم ويتبخرون مثل دخان السجائر الفاخرة التي كانوا

يدخنونها في السهرات. حاول رؤوف أكثر من مرّة أن يستفسر للحصول على مزيد من المعلومات عنهم لكن محسن كان يرد دائماً بقوله:

ـ سأخبرك بكل ما ترغب فيه في الوقت المناسب. اصبر قليلاً فقط.

بعد الزواج وتشابك العلاقة المريبة بين رؤوف ومحسن كانت تقعُ بينه وبين زوجته خصوماتٌ عاتيةٌ ترتفع فيها أصواتهما. بدا الحب القديم يتلاشى بسبب هذه العلاقة ويلفظ أنفاسه الأخيرة، وأصبح يعلن أفوله الوشيك بالتلاسنات، والاحتكاكاتِ الكلاميَّة، التي قد تتطوَّر أحياناً إلى صفعاتٍ على خدَّي زوجته. وبدا يفكر كثيراً في الهجرة خارج مصر، فالفرص هناك كثيرة ومتنوعة، ومن لم يكوّن نفسه الآن في مثل هذه الظروف، سيفوته الكثير بلا شك. كان يخبر زوجته عن هواجسه وأحلامه بالهجرة فكانت تثور في وجهه ويشتبكان في حديث عارم تتناثر فيه الكلمات التي تُقال والتي يجب ألا تُقال. كان يهربُ منها إلى شقَّة محسن الرمَّال في الكيت كات، فيمكثُ أياماً طويلةً في ضيافته ناقلاً معه طموحاته وأحلامه فيدلقها على مسامع محسن الذي كان يستمع له بصدر رحب. لم يكنْ يرغبُ في العودةِ إلى البيت إلّا إذا غلبه شوقه لاحتضان ابنته مها. يلبثُ معها سويعاتٍ قليلةً قبل أن يعودَ أدراجه إلى شقَّة محسن متحاشياً قدر الإمكان الاحتكاك بزوجته التي كانت تعزل نفسها في حجرتها

ريثما يغادر المكان.

كانت الأيامُ التي لا يتوفرُ فيها "الكيفُ" والنساء يختفين – يحدث هذا غالياً عندما يختفي أولئك الزوّار المتأنقون الفارهون – يشعرُ فيها باختلالٍ كبيرٍ في تفكيره وبدنه، ويتعكَّر مزاجه. كانَ المنقذ له في مثل هذه الأوقات هو محسن.

في جلساتهم المعمَّرة بالحشيش والنساء، كان محسن يقول له من بين دخان الجوزة:

- لا حلَّ يا صديقي لحالنا المائلة سوى الهجرة من البلد!

- نهاجر؟ إلى أين؟

- أرضُ اللهِ واسعةٌ.

يقولُ ذلكَ ثمَّ ينغمسُ في نوبة من السعال بسبب دخان الكيف. تهدأ الكحَّةُ قليلاً، ثمَّ يقولُ:

- ألا ترى بعينيكَ – يا صديقي – المصريين الأثرياء القادمين من الخليج؟ سنة أو سنتان ويعود الشخصُ غنِّياً ثريّاً يُشار إليه بالبَنَانِ!

يتوقَّفُ قليلاً قبلَ أن يستأنف كلامه:

- لماذا نروحُ بعيداً؟ ها هو أخي صلاح الذي سبق وأخبرتك عنه، يعملُ مدرساً في الكويت، اشترى بناية من خمسة أدوار في مدينة نصر ويمتلكُ ثلاث سيَّارات: واحدة له شخصيّاً، والثانية لزوجته، والثالثة يشغِّلها بنقل البضائع من القاهرة إلى الإسكندريَّة إلى المنيا في الصعيد، ويمتلكُ

رصيداً ماليّاً محترماً يتضخّمُ كلَّ شهر في البنك!
أراد أنْ يكملَ الكلام، ولكن موجة قويَّة من السعال انتابته ومنعته من الاستمرار في الكلام. ومن بين دموعه التي سالت بسبب الدخان، كان ينظرُ إلى صاحبه الذي بدا ساهماً واجماً، كأنَّه يلوكُ ما سمعه من كلماتٍ من رفيقه في عقله.
وأخيراً نطق:
- ولكن... كيف؟
- الأمرُ يحتاجُ إلى ترتيباتٍ كثيرة، وعلى رأسها المال.
- ومن أين سنأتي بالمال؟
عند هذا السؤال بالتحديد، رمى محسن "لَيَّ" الجوزة المعمّرة بالحشيش الرديء، وانتبهتْ كلُّ حواسِّه إلى السؤال. مال بكل جسمه نحو رؤوف وقال له:
- أفهم من كلامك أنَّه لو توفَّرت لك الفرصة للهجرة، ستهاجر؟
- نعم، بكلِّ تأكيد.
شملهم الصمت قبل أن يقول:
- لكن من أين لنا المال ونحن مجرَّد أدلّاء في متحفٍ خاصٍّ؟
- المالُ موجودٌ، ونحن نراه أمام أعيننا كل يوم.
- موجود؟ أين؟
- في المتحفِ، في الدور الثَّاني تحديداً.
أصابه الذهولَ من هذه الكلمات التي نطقَ بها محسن. صحا

قليلاً من توهانه وغيابه في أتون الحشيش، وقال له:
- ماذا تقصد؟
مرر محسن لرؤوف ما خطط له لأشهر طويلة قائلاً:
- اللوحة الثمينة إيَّاها التي يتوقف أمامها الزوار كثيراً ويأتون لمشاهدتها من كل مكان من العالم...
ضيّق ما بين حاجبيه ثمّ ضرب جبهته بباطن كفّه قائلاً:
- تقصدُ لوحة أزهار الخـشـــخ..؟
عاجله قبل أن يكمل جملته:
- نعم... هي التي أعنيها!
- ولماذا هذه اللَّوحة بالتحديد؟ المتحفُ ممتلئ باللَّوحات.
- السببُ بسيطٌ.
- ما هو؟
- حجمها الصغير الذي يسهل إخفاؤه دون أن يلحظ عليك ذلك أيُّ أحدٍ، و... ثمنها المرتفع.
زوى بوجهه في الناحية الأخرى. كان ينفث دخان الحشيش، بينما عيناه كانتا لا ترمشان، وقد استغرق في شرود طويل!

(١٦)

مكَّة المكرَّمة، ٢٣/٨/٢٠٠٣

بصعوبةٍ، أقنعتُ زوّجتي لإقراضي مبلغاً من المال كي أتمكَّنَ من امتلاك جهاز كمبيوتر. ذهبنا معاً لشرائه بعد أن بعنا جزءاً من مصاغها في أسواق الذهب، وبعد أيمانٍ مغلَّظةٍ منِّي أنْ أردَّ لها الدَّيْنَ الذي في عنقي في أقربِ تحسُّنٍ لحالتي الماديَّة المتدهورة. بعد جولة متأنيَّة في محلَّات بيع أجهزة الكمبيوتر وملحقاتها، وجدتُ جهازاً مناسباً، وبسعر معقول. دفعت ثمنه واشريتُ معه طابعةً وجهازَ مسحٍ ضوئيٍّ "سكنر". بعد تسديد ثمن جهاز الكمبيوتر سألتني زوجتي هل تبقَّى معي مالٌ؟

قلتُ لها: بقيَ القليلُ منه. طلبتْ منِّي أنْ أرافقها إلى السوقِ لشراءِ بعض المستلزمات النسائيَّة الخاصَّة بها، فوافقتُ على مضضٍ لأنَّني كنتُ متشوِّقاً لاستكشاف الكمبيوتر الذي امتلكته للتوِّ، والغريب أثناء تجوالنا في السوق، وفي أحد المحلّات التجاريَّة المتخصِّصة ببيع بعض الملابس النسائيَّة الحميمة، وقعتْ عيناي على "مانيكان" مقطوع الرأس، تمَّ تلبيسه بملابس نسائيَّة مثيرة، تماماً مثل تلك الملابس التي كانت ترتديها زوجةُ فيصل، والتي رأيتها في الصورة التي اختلستها من ألبوم صوره. كان الطقم نفسه، وباللون نفسه

وكذلك التصميم: "كلوت" شفّافٌ، و"سوتيان" شفّافٌ أيضاً، يكشفان أكثر ممَّا يستران. غمزتُ لزوجتي مؤشِّراً برأسي نحو المانيكان الذي في المحل، فوكزتني في جنبي بمرفقها، ثمَّ طلبتْ منِّي هامسةً أن أغضَّ بصرِي!

- أغضُّ بصري عن مانيكان؟!

همستُ لها بذلك، فسدَّدتْ إلي نظرةً حاسمةً طأطأتْ لها رأسي، ولكنَّها في نهاية الأمر اشترته، وأخفته في أحد الأكياس!

طوال ثلاثة أيَّام كنتُ أحاول سبر أغوار جهاز الكمبيوتر لأعرف أدقَّ أسراره. لستُ جاهلاً بالتعامل مع جهاز الكمبيوتر لدرجة الأميَّة، ولكنَّني كنتُ – لأوَّل مرَّة – أحصلُ على جهاز كمبيوتر خاصٍّ له برامج كثيرة متنوعة خلافاً لجهاز كمبيوتر الشركة الذي كنَّا نتعامل معه بطريقة عمليَّة فقط لإدخال المعلومات، أو استدعاء الملفات، وطبع الفواتير... وما إلى ذلك.

خلال هذه الأيَّام الثلاثة، اتَّصلتُ بشركة الاتصالات لإدخال الإنترنت إلى منزلي. جاء عامل الشركة بعد توصية من أحد الزملاء لتسريع معاملة تأسيس خط الإنترنت. أوصلت "النت" إلى بيتي، وأوصلني فيما بعد جهاز الكمبيوتر إلى العالم بأسره!

ولمْ أنسَ كنزي!

كنتُ أنفذ جولات إلى السطح، بطريقة تبدو روتينيّة حتَّى لا

ألفتَ الأنظار. كانت جولاتي – في الغالب – قبيل الفجر أو بعده بقليل، وأحياناً قبل أنْ أخلد للنوم. بسبب تلك الزيارات التفقدية، واظبتُ على صلاة الفجر بعد انقطاع منذُ شهر رمضان الماضي. كانت تمنحني انسجاماً وطمأنينة نفس افتقدتها منذ زمن طويل. بعد العودة من الجامع أصعد إلى السطح وأفتح باب المخزن. أتحسَّسُ بيدي اللَّوحة المفرودة والمخبَّأة وسط إسفنج المقعد الجلدي. أحياناً تنتابني الشكوكُ فأفتحُ الشقَّ الذي لحمته بالغراء الشفَّاف. أنظر إليها بحنوٍّ، وأطمئن أكثر إلى أنَّها لا تزال في مكانها. أعدتُ الشقَّ، ثمَّ لحمتُ طرفيه بالغراء الشفَّاف، وأعيده كما كان. كان مشروعي البحثيّ الإنترنتيّ يتكوَّن من عدَّة خطط سأحاول تنفيذها حتَّى أعرفَ مدى قيمة لوحة فان غوخ "أزهار الخشخاش"، الماديَّة والتاريخيَّة، التي بحوزتي. وقرَّرتُ المضيَّ قُدُماً في مراسلة أساتذة الجامعات وبعض الفنانين المعروفين على الساحة الثقافية، بعد أن أحصل على إيميلاتهم من مواقعهم الإلكترونيَّة، أو من مقالاتهم المنشورة في الصحف والمذيَّلة ببريدهم الإلكتروني. أنا الآن في إجازة لمدَّة ثلاثة أسابيع بعد أن رفضَ رئيسي في العمل منحي شهراً كاملاً بحجَّة قلَّة الموظَّفين وضغط العمل، كما كان يردِّد. سأستغلُّ هذه الأيام في المراسلات البريديَّة الإلكترونيَّة، وأتمنَّى أن أحظى منهم بإجابات عن أسئلتي. كنتُ أستغلُّ وقتَ نوم زوجتي في مراسلة الخبراء من دكاترة

الجامعات وبعض الفنانين التشكيليين. أرسلت عدَّة رسائل، ولكنَّني لمْ أحصل على ردٍّ حتَّى الآن!

أرسلتُ رسالةً إلى الدكتور صادق مبارك، أستاذ تاريخ الفن في الجامعة، وبذلتُ جهداً في صياغتها لتكون مؤثِّرةً:

سعادة الدكتور مبارك صادق، المحترم

لا أعرفُ يا سيِّدي كيفَ أبدأ رسالتي هذه معكَ، ولكن اختصاراً لوقتكَ الثمين، أريدُ منكَ معلوماتٍ حقيقيَّةً وموثَّقةً عن الرسَّام فان غوخ، وعن لوحته "أزهار الخشخاش"، وذلك لأنَّني أعدُّ رسالة ماجستير عنها، وأرجو من حضرتكم تزويدي بأسماء مراجع يمكنني اللجوءُ إليها للاستزادة. شاكراً لكم مقدَّماً تفضُّلكم بالإجابة عن استفساراتي أعلاه.

الباحثُ الأكاديميُّ

نواف ظافر

أرسلتُ نسخاً من هذه الرسالة إلى بعض الرسَّامين الذين كانوا يكتبون إيميلاتهم أسفل مشاركاتهم في الصحف والمجلات، وأرسلتها أيضاً إلى جميع أعضاء هيئة التدريس الذين سجَّلتُ عناوينهم أثناء زيارتي إلى الجامعة منذُ أيام،

وأضفتُ أسماءهم حتَّى تكونَ كلُّ رسالة تبدو كرسالةٍ مستقلة موجهة إلى شخص واحد. أعدتُ قراءة الرسالة أكثر من مرَّة، وأعجبني وصفي لنفسي بالباحث!

وضغطتُ زرَّ الإرسالِ!

(١٧)

زونديرت – هولندا، ١٨٦٨

منذُ تركَ مقاعد الدِّراسة في ثانويَّة وليام الثاني في "تيليبورغ"، كان فينسنت فان غوخ يمارسُ دوماً هوايته الأثيرة والمفضَّلة، وهي المشي لمسافات طويلة بين حقول أزهار التوليب والداليا والأقحوان وعبّاد الشمس، مستمتعاً بألوانها الزاهية، في مسقط رأسه في بلدة زونديرت الهادئة.

حاول أبوه القسيس المحبوب – الذي لا تفارقُ الابتسامة شفتيه – ثنيه عن قراره ترك الدِّراسة، ولكنَّه عجز عن إقناعه بالعودة إلى المدرسة. في سبيل ذلك، استعان بعمَّيه كورنيليس، وفينسنت، اللَّذين كانا يشتغلان في تجارة الأعمال الفنيَّة في مؤسَّسة "غويبل آند سي"، ولكنَّهما أيضاً لم يظفرا بطائل منه. حتَّى أخوه ثيو الأصغر والأقرب إليه من بين أفراد العائلة قاطبة لم يفلح في مسعاه. يعرفُ أنَّه عنيدٌ رغم الهشاشة النفسيَّة والجسميَّة التي يبدو عليها، تماماً، مثل والدته آنا.

يقابلُ الغضبَ الصارخَ بهدوءِ نفسٍ، وينهي كلَّ ما يرغب في قوله بكلماتٍ قليلةٍ واضحة المعنى والمقصد، لكنَّه إذا أُستثير زيادةً عن طاقته، يسفح انفعالاً هائلاً لا يمكن توقع مداه. أراد أبوه أنْ يعملَ إلى جانبه في الكنيسة، ولكنَّه لم

يفلح في ذلك أيضاً، فتركه خوفاً عليه من صمته المريب، ومن تأمّله الطويل الذي لا ينقطع.

كانت زيارة عمِّه كورنيليس، أو "كور" كما يناديه أفراد العائلة اختصاراً، حدثاً مهمّاً في أيَّامه الرتيبة التي يقضيها متجوِّلاً في حقول الزهور على تخوم بلدة زونديرت، وفي ميادينها الفسيحة المكلَّلة بالزهور المزروعة على نحو مدروس. عمُّه "كور" كثيراً ما أهدى له لوحات لفنَّانين مبتدئين يشتريها منهم بثمنٍ بخسٍ، وقد ساعدته هذه اللَّوحات على الدخول إلى عالم الفن البهيج والمليء بالمفاجآت. كان سريعَ التعلُّم والبديهةِ، وقد شغف بدراسة اللُّغات المختلفة، فأتقن التحدُّث بالإنكليزيَّة والفرنسيَّة في زمن وجيز وعلى نحو مذهلٍ، وتحسَّن مستواه فيهما بعد أن زوَّده عمّه "كور" ببعض الكتب باللّغة الإنكليزيَّة والفرنسيَّة بسبب كثرة رحلاته إلى بريطانيا وفرنسا.

كان هناك هاجسٌ يقلقه ويقضُّ مضجعه، فمن حوله يذكِّرونه دائماً – وإن كان ذلك على سبيل الدعابة – بأنَّه وُلد بعد سنة واحدة من اليوم الذي وُلدت فيه أمَّه طفلاً ميِّتاً، ذلك الطفل الذي مات في ظلمة الرحم كان لسوء الحظ اسمه فينسنت – كما سمَّاه أبوه – وهو لا يزالُ جنيناً في بطن أمه. يشعر كثيراً بالألمِ النفسيِّ حينما يذكِّره الآخرون لكونه "بديلَ طفلٍ"! ولو سمحت الأقدارُ، لكان له أخٌ آخر يُدعى بالاسم نفسه. كان عندما يسير في طرقات زونديرت يتحاشى المرور

بقبر أخيه الذي مات قبل ولادته. لم يستطع مقاومة ذلك الشعور القاهر الذي كان يراوده بأنه يرى قبره، هو، لا قبر أخيه الميت!

عام ١٨٦٩ التحق بمؤسَّسة "جوبيل آند سي" في أمستردام. قبلته المؤسَّسة بعد تزكية من عمَّيه وأخيه، وبسبب إجادته اللُّغتين الفرنسيَّة والإنكليزيَّة. هناك أثبت نجاحه وتفوّقه في عمله. ولبث موظَّفاً في مؤسَّسة "جوبيل آند سي" سبع سنوات. كانت سنواتٍ مثمرةً وغنيَّة بتفاصيلها، كما وصفها في إحدى رسائله الكثيرة إلى أخيه ثيو الذي كان موظَّفاً في فرع المؤسَّسة في باريس.

ذات صباحٍ ربيعيٍّ رائقٍ عام ١٨٧٣ استدعاه مدير المؤسَّسة، وقال له مبتسماً:

- نحنُ نثقُ بقدراتك سيِّد فينسنت، أنتَ شابٌّ في مقتبل العمر، ولديك مستقبلٌ زاهٍ في مثل هذا النوع من التجارة، وإنْ لم يخب ظنِّي فأنتَ مشروع فنّان قادم وبقوّة، وفي ضوء ذلك، قرَّرت المؤسَّسة إرسالكم للعمل في فرع الشركة في لندن.

توقَّف قليلاً عن الكلام. تناولَ جرعةَ ماءٍ في كوب موضوع أمامه على المكتب، واستأنف قوله:

- الفرعُ في لندن يعاني قليلاً من الكسل والخمول في مدينة تعجُّ بالكتَّاب الكبار، وبصالات عرض اللَّوحات، وبالفنّانين العظماء الذين طبقت شهرتهم الآفاق.

واصل حديثه وهو ينظر إليه من فوق نظارته الواقعة على طرفي أرنبة أنفه:

- فرع المؤسسة هناك يحتاج شابّاً ذا روحٍ وثَّابةٍ – مثلكم تماماً سيّد فينسنت – تحبُّ الفن وتقدِّس رسالتَه ليزيد وهجه.

بعد أن اطَّلعَ على بعض أعمال فنانين كبار، ومن حديث عمّيه وأخيه عنهم وعن أعمالهم، كان يحسُّ بشيءٍ ما يريد الخروج من صدره، وتتوقُ أنامله إلى ترجمته إلى شيءٍ محسوسٍ وملموسٍ. الرَّسم والألوان، وزيوتها، وروائحها، والفُرَشْ وملامسها، هي ما يعبث بوجدانه، وتأخذ بتلابيبه. الرَّسم ولا سواه سيكون منذُ اليوم عالمه الأوحد الذي يلوذ به هرباً من صفاقة الواقع وفجاجته. كان يلجأ إلى أوراقه، يمعن النظر في "شخابيطه" و"اسكتشاته"، فيرى تلك الخطوط تكتسي روحاً، وتدبُّ فيها الحياة لتعبِّر عن مكنونات نفسه.

لم يفكِّر كثيراً فيما عرضه عليه رئيسُ المؤسَّسة، بل شعر أنَّ الوقت قد حان لبدء حلمه المنتظر، وقد جاءته الفرصة التي لم ولن تتكرر أبداً.

استعدَّ للسفر، وسافر في آخرِ الأمر.

قادته خطواته إلى فرع الشركة في لندن، وإلى... أورسولا.

(١٨)

لندن، ١٨٧٣

كانت الحياةُ الفنيَّة والثقافيَّة في لندن إبَّان العهد الفيكتوريِّ في أوجِ لمعانها وذروتها. مسارحها تعجُّ بالمسرحيَّات والممثلين، وقاعاتها الكُبرَى ممتلئة بالشعراء والموسيقيين والرسَّامين. ومكتباتها ومطابعها ودور نشرها تصدر العديد من الكتب لكبار المؤلِّفين وأكثرهم شهرة آنذاك. اندمجَ فان غوخ سريعاً في المناخ الثقافيِّ الإنكليزيِّ. في أواخر أغسطس، وجد شقَّة مناسبة بعيدة عن الضجيج والزحام. كان موقعها في طريق هاكفورد في ساوهامبثون. بيت يعود إلى أرملة حسناء لديها طفلٌ يُدعي يوجين. هذا البيت مكوَّن من طابقين، استأجر العلويّ منهما. كان حالما يعود من عمله يرتاح قليلاً، ثمَّ يبدأ مساءً، وفي العطل الأسبوعيَّة، ممارسة هوايته: الرَّسم.

عاش مع أورسولا وابنها يوجين كجارٍ لهما. كان يراقبهما بحبٍّ من بيته في الطابق العلوي، وعندما تقعُ عيناه على أورسولا، يشعرُ بطعم آخر للحياة، طعم لذيذ وخفيّ، يختبئُ خلف الأنثى وعبيرها وسحرها الذي يملأ فراغ الأيام ويضع حدَّاً لرتابتها. وخلال سنتين كانتا ذات تأثير كبير في حياته العاطفيَّة، وصقلتا أيضاً مواهبه، وعززّتا ذوقه الفنّي، لم

يفوِّت أيَّ فرصة، فزار في لندن العديد من المعارض الفنيَّة والمتاحف. راقب الرسَّامين وهم يرسمون في الحدائق وعلى ضفاف نهر التايمز، وفي الميادين العامَّة، وأصبح معجباً كثيراً بالكتَّاب البريطانيين أمثال جورج إليوت وتشارلز ديكنز.

ولكن، لا يدومُ الحال على حالٍ واحدةٍ!

كانت أروسولا – ذاتَ الوجه الجميل والحزين – أوَّل امرأة تطرقُ أبواب حصون قلبه!

لمْ تكنْ أورسولا تعرفُ لماذا كان ينظر إليها بطريقةٍ أخرى؟

كانت قد سئمت الرجال وفقدت الثِّقة فيهم، بعد أن هجرها زوجها – هي وطفلها يوجين – وأخذ يطارد الأوهام على موائد القمار في أندية "هامبستد" و"كامدن" في لندن. وساءت العلاقة بينهما أكثر عندما حاول زوجها أن يرهن البيت نظير مقامرته فرفضت رفضاً قاطعاً، وطردته من البيت مستعينة بالشرطة. كلُّ الذي تعرفه عنه أنَّه رسامٌ هولنديٌّ غريبُ الأطوار يُدعى فينسنت فان غوخ، استأجر منها الحجرة العلويَّة بمنافعها ليكون قريباً من مقر شركة "جوبيل آند سي". اضُطرت أورسولا إلى تأجيره الحجرة بعدما ضاقَت بها الحال ولم تجدْ عملاً مناسباً، خصوصاً في أعوام الكساد التي ضربت بريطانيا، وأخذت الدولة العظمى ترسف تحت أغلال وطأة عهود الحروب، والمجاعات، والأمراض

الفتَّاكة، رغم حيويتها الأدبيَّة والفنيَّة.
كان ذو اللِّحية البرتقاليَّة يداعبُ طفلها الجميل يوجين، ويهديه بعض الهدايا البسيطة... وينظرُ إليها نظرةَ المحبِّ.
ولكن هيهات، فقد أغلقت قلبها بالضبَّة، ورمت المفتاح في نهر التايمز العظيم!
كانت تعرفُ أنَّه شبهُ مفلسٍ لا يكادُ يجد قوت يومه، وينفقُ معظم أمواله على لوازم لوحاته من فُرَشٍ، وألوانٍ، ومذيبات اللون، وقماشِ الكانفاس أو التوال، وحواملِ الرَّسم، وأحياناً بعض الموديلات!
ولكنَّها كانت تريدُ المال، ولا تريدُ العطفَ، أو الشفقةَ، أو حتَّى الحبَّ الذي كان بالنسبة إليها ــعطفاً على ظروفها ــ زائداً عن الحاجة.
طرق باب بيتها ذات يوم، مدَّ إليها لوحة من لوحاته وقال لها منكسّاً رأسه:
ــ إنَّني لا أملكُ شيئاً من المال لأدفع لكَ الإيجار، ولا أملك سوى لوحاتي.
ووقف ينتظر الجواب.
صرختْ في وجهه:
ــ لكنَّني امرأةٌ معدمةٌ، لا يوجد لديَّ مالٌ، وليس لي دخلٌ سوى تأجيري لكَ تلك الحجرة!
صمت فان غوخ ولم ينبس ببنت شفة، فقد كان في قمَّة شعوره بالإحراج وقلَّة الحيلة.

أقفلت البابَ في وجهه بعنفٍ، وانسحبَ بهدوءٍ!

في حجرته، ألقى اللَّوحة في إحدى زوايا الحجرة، وجلس على كرسيِّه الوحيد، وكتب رسالته ربما العشرين إلى أخيه ثيو الذي كان لا يزال يعمل في باريس، يطلبُ منه بإلحاح كالعادة مبلغاً من المال. وفي غدوّه ورواحه إلى مقر عمله، كان ينتظرُ بشوقٍ ولهفةٍ صوت جرسِ درَّاجة ساعي البريد على أحرِّ من الجمرِ. لكنَّ الساعيَ تأخَّر أكثر من اللازم. لم يصبر كثيراً. جمع بعض لوحاته، وانطلق بها يعرضها على تجَّار اللَّوحات الجشعين في أحياء لندن الراقية، ولكنَّهم خذلوه! كانوا يطالعُونَ لوحاته ببرودٍ، يمطُّون شفاههم السُفلى، ويعرضون ثمناً بخساً عليه، فيرفض والغضبُ يأخذُ بنفسه. كان يدركُ جيداً أنَّ لوحاته تلك قد رُسمت معجونةً بمشاعره، وخوفه، ونزقه، وفرحه، وبكائه، و... بحبِّهِ أورسولا جارته الحسناء التي صدَّته بكلِّ حزمٍ.

في أحد المقاهي التي تقعُ على التايمز، غرب لندن، جلس منهكاً على أحد كراسي المقهى حزيناً، ويشعرُ بالغُبنِ والكمدِ. لمحه صاحب المقهى، اقترب منه، وكأنَّه أدرك حاجته، فعرض عليه مبلغاً من المال لقاء إحدى لوحاته، فوافق من الفور. تناول الجنيهات، وتأبَّط بقيَّة لوحاته، وذهب فرحاً إلى البيت وإلى... أورسولا، الجارةِ الطيِّبةِ الحسناء، ليسدِّدَ لها ما عليه من إيجارٍ متأخَّرٍ. في الطريق، ألحَّ عليه هاجسٌ أن يشتريَ هديةً للطفل يوجين ولأمِّه، ولكنَّه تراجع في آخر

لحظة بسبب ضآلة المبلغ الذي في جيبه. طرقَ البابَ، ففتحتْ له أورسولا، وحالما رأته، صرختْ في وجههِ:
– ماذا تريدُ؟
لم يتفوه بكلمة. أدخل يده في جيبه وانتشل الجنيهات، وسلَّمها لها مبتسماً. تناولتْ أورسولا النقود فرحةً، نظرتْ في وجهه، وابتسمتْ له، ربَّما لأوَّل مرَّة، وأغلقت البابَ هذه المرَّة بهدوءٍ!
انطلق فان غوخ والنشوةُ تملأُ جوانحه مبتهجاً بتلك الابتسامة التي حرَّكت روحه المتعطِّشة للحبِّ وللحياة. فتح باب حجرته، وتناول فرشاته، وعلَّق إحدى لوحاته على حامل الرَّسم، وبدأ يرسمُ واحدةً من اللَّوحات بكلِّ حيويَّةٍ وحبٍّ.
في مساء اليوم التالي، لبس أجمل ما لديه من ثياب، واشترى باقةَ وردٍ من بائعةٍ شابَّةٍ وجدها عند أحد جسور لندن، وطرقَ البابَ على جارته، فتحتْ له البابَ، وحالما لمحته كادتْ تقفلُ البابَ، ولكنَّه استوقفها، وقال لها:
– إنَّني أحبُّكِ يا أورسولا حبّاً مَلَكَ عليَّ جوانحي. مضى عامان وأنا أتقلّب تحت جمر هذا الحب. أليس هذا كافياً لتشعري بي وبحبي لك و...
لم يستطع أن يكمل كلامه. كان يلهث بعد أن دلق تلك الكلمات، ولكنَّ أورسولا صاحتْ في وجهه:
– اغربْ عن وجهِي!

(١٩)

باريس، ١٨٧٥

بسببِ هذِه الهزَّة العاطفيَّة القاسية، أصبحت العلاقة بينه وبين شركة "جوبيل آند سي" متوترةً، وسادها الكثير من البرود، ولاحقاً قلة الاهتمام. لم يعدْ ذات الرّجل، بل أصبح رجلاً محطَّماً وكسيرَ القلبِ. ثمَّ أصابته لوثةٌ دينيَّةٌ قرأ خلالها كثيراً من كتب اللاهوت، وكان يقدم بعض المواعظ إلى الناس في طرقات لندن وشوارعها. ولكي يتخلّص من كل هذا العذاب، عقد العزم على الالتحاق ببعثة إنجيلية متوجهّة إلى بلجيكا. سافر إلى هناك ثم ألقى رحاله قرب منجم فحم في بوريناجي. تأثر كثيراً بحياة البؤس وشظف العيش الذي كان مسيطراً على هؤلاء العمال. كان يلقي عليهم مواعظه بطريقة أشبه ما تكون بالهذيان. وبإيحاء من تلك الأجواء البائسة، رسم لوحة "آكلوا البطاطس". لاحقاً كتب إلى أخيه ثيو بعد استقراره في بوريناجي متأثراً بهذه الأجواء:

عزيزي ثيو:

أنت تعرف أن أحد المبادئ الأساسيّة للكتاب المقدّس هو ذلك النور الذي يسطع في الظلام، ومن يحتاج إليه في هذا الوقت؟ إنّه عامل المنجم المسكين، فالبنسبة إليه ضوء النهار غير موجود إلا يوم الأحد، فهو لا يرى ضوء

الشمس، ويعمل طوال الوقت على ضوء مصباح في رؤية معتمة وضعيفة في وادٍ ضيق، حانياً جسده وزاحفاً أحياناً على بطنه.

بعد مرور أشهر قليلة، ارتاب فيه سكان بلدة بوريناجي فعاملوه كرجل مجنون. كانوا يتحاشونه على نحو أوجعه، فعزم على الانتقال إلى بروكسل وهناك سجَّل في أكاديمية الفنون ليطوّر إمكاناته في فن الرسم ولكن الأوضاع في تلك الأكاديمية كانت محبطة، فقد شكك المعلمون في أنَّه سيكون فناناً ذات يوم. ووصفوا رسوماته بالبدائية والضحلة. شعر باليأس فاتجه إلى أنتويرب وهناك انجرف وراء غرائزه، فأدمن الذهاب إلى حانات البحّارة المنتشرة بالقرب من السور القديم جهة الشمال من المدينة، وغرق في السُكر والعربدة، وكان زائراً دائماً لبيوت الدعارة. لبث أشهراً قليلة في أنتويرب ثم ارتحل إلى فرنسا، مزمعاً على الالتحاق بأخيه ثيو. وفي مايو ١٨٧٥، أخذ طريقه نحو باريس. كان ذلك أفضل هرب من أورسولا، ومن أمراضه وخيباته، ومن نفسه أيضاً. هناك التقى أخاه الذي تعهَّد رعايته والوقوف إلى جانبه. كان ثيو مدركاً شخصيَّة أخيه الحسَّاسة والمتقلِّبة المزاج، التي زادها الحبُّ الضائع توتراً وانطوائيَّةً وعزلةً. يعرفُ أنَّ روح الفنان قد تلبَّسته منذُ كانَ يسير ماشياً متأملاً حقول أزهار التوليب وعبّاد الشمس في زونديرت، ولن يجد منها فكاكاً. رأى ثيو الكثير من الفنانين الغريبي الأطوار.

يعرفُ أنَّ أرواحهم شفّافة مرهفة لا تحتمل الخيبات أو الانكسارات العاطفيَّة بالذات. عاش الأخوان معاً في شقَّة في منطقة مونمارتر في باريس. حاول إدماج أخيه في المجتمع الفنيِّ الباريسيِّ الغنيِّ بالفعاليَّات والمعارض والنقاشات الفنيَّة، لعلَّ وعسى يخفِّف ذلك عزلته وانطوائيّته، وقد نجح في ذلك إلى حدٍّ كبيرٍ.

ثيو، بجانب كونه تاجراً ومسوِّقاً ناجحاً للأعمال الفنيَّة، كانت لديه العديد من الصداقات ببعض فنَّاني باريس الكبار. وبسبب ذلك، أصبح فان غوخ مألوفاً لدى أصدقاء أخيه من الفنَّانين الرُّواد في باريس في ذلك الوقت. كان فان غوخ في خلال السنتين اللتين كان فيهما في باريس يزور بعض المعارض الفنيَّة للفنانين الانطباعيين، إذ كانت المدرسة الانطباعيَّة في التصوير التشكيلي رائدةً في ذلك الوقت، ولها رساموها وجمهورها ومتذوِّقوها، وقد عرضت أعمال ولوحات رينوار، وكلود مونيه، وديغاس، وسيورا، وسيسلي. واستفاد أيضاً في تنويعات اللون فتخلى تدريجياً عن الألوان الحيادية الداكنة كالأسود ودرجاته والرصاصي والبني ودرجاته. وجد في الألوان التي كان يستخدمها الرسامون الانطباعيون نمطاً جديداً، فظهرت في لوحاته للمرة الأولى ألوان زاهية مشرقة كالأصفر والأحمر والأزرق والأخضر. في متحف اللوفر، اكتشف أسلوب الطبعات اليابانية، وكانت الصرعة السائدة في ذلك الوقت، فظهر

تأثيرها جليّاً في خلقيات لوحاته عبر ضربات الفرشاة القصيرة والمتقطعّة. تأثّر فان غوخ – دون شك – بطرق الانطباعيين في الرَّسم لكنَّه بقيّ مخلصاً لأسلوبه الفريد على الدَّوام. ترى في لوحاته ضربات الفرشاة الدائريَّة التي تعبِّر عن الحيرة، والنبذ، والعزلة، والانطواء، وترى الألوان الساطعة المتداخلة مع الألوان المنطفئة واضحة في جلِّ أعماله في تلك المرحلة. كان فان غوخ طوال تلكما السنتين يستخدمُ بعض تقنيات الانطباعيين في لمسات الظل والنور وخلفيات اللَّوحة، لكنَّه لم يسمح لتأثيرهم القوي أن يأخذه بعيداً عن أسلوبه الخاص.

تركَ فينسنت شقَّة أخيه في مونمارتر، وسكن في بيتٍ ريفيٍّ، وهناك استمتع بالرَّسم في ضواحي باريس. بدأت لوحاته الابتعادَ عن الألوان الداكنة وتأخذ ألوان الانطباعيين الفاتحة والمشعَّة والأكثر حيويَّة. وعكست لوحاته أثناء ذلك الوقت الاستعمال الواضح للألوان المفضَّلة عند الانطباعيين.

في باريس، ارتقى فان غوخ بمستواه. وربما كان لاحتكاكه بالفنانين الكبار تأثيرٌ في أعماله. لكنَّ معضلته الوحيدة كانت تبدأ بقدوم فصل الشتاء الذي يجعل روحه معتمة، ويغرق في السوداويَّة، ويصيبه الاكتئاب ما يجعله عصبيّاً على الدوام. في شهور الشتاء، كان يعود إلى شقَّة أخيه في باريس، ولكن علاقتهما أصابها التوتر بسبب الأزمات الماليَّة التي كانت تلمُّ بثيو وتجارته التي يصيبها الكساد أحياناً، فلا يكون هناك مالٌ

كافٍ لشراء قماش الكانفاس ولا الألوان ولا الفَرَش، ولا الزيوت الخاصَّة بها، ما كان يزيد عزلة وعصبيَّة فان غوخ. جعله الطقس السيئ أثناء فصل الشتاء متعطلاً عن كل شيءٍ، حتَّى عن ممارسة الرَّسم. أدرك أخيراً أنَّ الحياة في المدن المزدحمة الضاجَّة بالناس لا تلائمه، فقرر ترك باريس والاتجاه إلى جنوب فرنسا، حيث الدفء، والشمس، والبحر.

(٢٠)

آرل ــ مقاطعة بروفانس ــ فرنسا، ١٨٧٦

استقلَّ فان غوخ القطار المتجه من باريس إلى آرل الواقعة في مقاطعة بروفانس، جنوب فرنسا. كان راغباً في الابتعاد عن شتاءات باريس الكئيبة التي زادت من سوء مزاجه. يرى من نافذة القطار الحقولَ تتسارع وتكتسب ألوانها خضرةً زاهيةً تشيعُ في النَّفس الراحة والطمأنينة كلَّما أوغل القطارُ جنوباً.

مع خروجه من محطة القطار، لسعته موجةٌ من البرد القارس، فانكمش على ذاته. في الأسابيع الأولى من وجوده في آرل، أصابه نوعٌ من خيبة الأمل، فقد وجد الطقس بارداً جدّاً رغم أن فبراير في أواخره. ولم يسمح لذلك أن يفتَّ في عضده. ولحسن الحظِّ، لم يستمر الطقس بارداً، إذ سرعان ما هلَّت بوادر الربيع وبدأ المكانُ اكتساب ألوان الربيع البهيجة، وحينئذ بدأ رسم بعض أفضل أعماله.

عندما ارتفعت درجات الحرارة وساد قليلٌ من الدفء، لم يهدر فرصة البدء بالرَّسم في الطبيعة. مع إشراقة كلِّ شمس كان يحمل لوحاته، وألوانه، وفُرَشه، وحوامل الرَّسم، آخذاً طريقة نحو نهر الرون، مخترقاً حقول الصفصاف، والدردار المستبشرة بضوء الشمس بعد ليالي الشتاء الكابية. في

طريقه نحو الحقول، يمرُّ بجسر لانغلويس المتحرِّك. يتأمَّل أخشابه المصقولة وحركته في الارتفاع والانخفاض التي تتمُّ بشدِّ جزءٍ من كلِّ طرف على حدةٍ. يضعُ أدواته ويتأمَّل الحقول المجاورة له. هذا المكان بالذات يحرِّك رغبته في الرَّسم، وهناك رسمَ عدَّةَ أعمالٍ من بينها لوحة "غرفة نوم في آرل"، و"منظر طبيعي لطريق وأشجار مشذبة"، ولوحة "الطريق عبر حقل الصفصاف".

في ذلك الوقت، رسم سلسلةً من لوحات الحقول المعرَّضة لضوء الشمس والهواء الطلق. كان مسروراً بما أنتج، وشعر لأوَّل مرَّة بالتجدُّد، وبروحه تخرج من عزلتها لتجابه الحياة في أبهى صورها. كانت الشهور التالية أكثر سعادة بالنسبة إليه. استأجر بيتاً من أحد مالكي العقار في آرل كانت معظم جدرانه الخارجيَّة مطليَّةً باللون الأصفر، فسمَّاه "البيت الأصفر". اتَّخذه كمرسمٍ ومستودعٍ للوحاته التي بدأت تتزايد أعدادها بسبب انفتاح شهيته على الرَّسم.

وكتب لأخيه "ثيو":

عزيزي ثيو:

شكراً علَى رسالتِكَ، وإشعارِ المئةِ فرانكٍ المرفقِ بهَا، لقدْ أرسلتُ إليكَ "إسكتشاتِ" اللَّوحاتِ التي ستذهبُ إلى هولندَا. لا تزالُ البساتينُ والحقول مزهرةً. الجوُّ هنَا ملائمٌ لي بلا أدنَى شكٍّ، أتمنَّى لو استطعتَ ملءَ رئتيكَ منهُ، هناكَ تأثيرٌ واحدٌ هزليٌّ بما فيه الكفايةُ أنَّ كأساً صغيرةً

واحدةً تسكرنِي هنَا، وعلَى ذلكَ لا يجبُ العودةُ إلى الإكثارِ من المشروباتِ الكحوليَّةِ لتنشيطِ الدورةِ الدمويَّةِ، هذَا سوفَ يقلُّ توترِ مزاجِي، الشيءُ الوحيدُ الذي سبب لي الضيق هُو أنَّ معدتِي أصبحتْ ضعيفةً جدّاً منذُ حضوري إلى هنَا، لكنْ قدْ تكونُ مسألةَ وقتٍ!

يحدونِي الأملُ في تحقيقِ تقدُّمٍ هذَا العام، الحقيقةُ أحتاجُ إلى ذلكَ جدّاً. عندي بستانُ فاكهةٍ جديد بجودةِ أشجارِ الخوخِ الملوَّنةِ الورديَّةِ وأشجارِ المشمشِ بأزهارِهَا الشديدةِ الشحوبِ. حاليّاً أعملُ على لوحات مستوحاة من نضارة بعضِ أشجارِ البرقوقِ البيضاء المائلةِ إلى الاصفرارِ معَ آلاف الأغصانِ السوداء، أستخدمُ كمّاً هائلاً من الألوانِ والقماشِ، وآملُ ألّا يكون رغمَ ذلكَ إضاعةً للمالِ، فمن أصلِ أربعِ لوحاتٍ زيتيَّةٍ علَى القماشِ ربَّما واحدة علَى الأكثرِ منهَا تصبحُ لوحةً!

أخوك المحبُّ فينسنت

(٢١)

كان في لحظة يأس، فمنذ أكثر من سنتين ونصف في باريس، رسم على قطعة من قماش الكانفاس خلفية سوداء للوحة شغلته كثيراً في الآونة الأخيرة. كانت تتخلّق في عقله وتنمو كما ينمو الجنين في بطن أمه. وضع تصوراً شاملاً في ذهنه عن كيفية تنفيذها. رسم اسكتشات سريعة للوحة. بعد أيام من وجوده في آرل عاد إلى تلك الاسكتشات وتصفّحها. كانت مرسومة على الورق بإصبع من الفحم. تأملها قليلاً. ثم من فوق الطاولة القريبة تناول حزمة من زهور الخشخاش بلونها الأصفر الزاهي. جلبها من أحد الحقول القريبة من جسر لانغلويس. وضعها داخل مزهرية رمادية اللون. ابتعد قليلاً إلى الوراء. تأمل شكل زهور الخشخاش باحثاً عن تناغم وانسجام للوحة ليكونا الشرارة الأولى للبدء في رسمها. لاحظ وجود زهرتين حمراوي اللون بقيتا فوق الطاولة. تناولهما وأضافهما إلى زهور الخشخاش. كانتا أقصر طولاً لذلك وضعها على يمين المزهرية. عاد إلى الوراء قليلاً. شعر بكثير من الرضا على الشكل النهائي، وهزّ رأسه استحساناً. وضع إطاراً خشبياً حول تلك القطعة السوداء من قماش الكانفاس. تناول مطرقة وشدّ قماش الرسم بمسامير صغيرة الحجم على أطراف الإطار. بدأ رسم

الخطوط العريضة للوحة بضربات سريعة من الفرشاة. بسبب هذه اللوحة، وبما فيها من إيحاءات، واصل فينسنت الرسم باجتهادٍ وشغفٍ طوال فصلي الربيع والصيف، وبدأ إرسال بعض أعماله إلى ثيو، واستلم منه رسائل تفيد بأنَّ أعماله تلقى صدىً واسعاً في الأوساط الفنيَّة في باريس، ما شجَّعه على بذل المزيد من الجهد والتفاني في الرَّسم. ولم يكتف بذلك، بل مدَّ حبال الصلة بينه وبين الناس فيما حوله. كان الريفيُّون يتميَّزون بالهدوء والانسجام مع الذات، ربما بسبب أرواحهم المستكينة في أحضان الطبيعة الوارفة المعطاء. فعل ذلك وهو الشخص الانطوائيُّ المعتزل. بذل الجهد أثناء تلك الشهور للحصول على الأصدقاء رغم أنَّه كان يشعرُ بالوحدة في بعض الأحيان، لكنه لم يسمح لها أن تسيطر عليه بالكليَّة. لم يكن يهمُّه نوعُ الأصدقاء، أو ماهية خلفيَّاتهم الثقافيَّة أو المعرفيَّة، كان فقط يكتفي بمن ترتاح له روحه. كوَّن العديد من الأصدقاء من الفلاَّحين، والمشرَّدين، وعابري السبيل، والجنود العائدين من ثكنات الحروب، والمومسات. حتَّى الفنانون الكبار، أرسل إليهم الرسائل لينضموا إليه في ريف آرل الجميل والرائع، وكان من أهمِّ مَن استجاب لدعوته الرسَّام الكبير بول غوغان. أرسل له فان غوخ رسائل تشجِّعه على الانضمام إليه في الجنوب الهادئ، حيثُ البيئةُ الخصبةُ والصالحةُ لممارسة الرَّسم بصفاءِ نفسٍ وأريحيَّةٍ. لكنَّ غوغان كان مفلساً، وأخبره أنه

لا يملك المال الكافي للسفر إلى آرل، فاضُطر فان غوخ إلى الاستعانة بأخيه ثيو ليمدَّه بالمال في سبيل استقطاب هذا الفنان الكبير. غوغان كان يحملُ روحاً قلقة لا تثبت على حال واحدة. كان نصف فرنسي، ونصف أميركي لاتيني، فأمُّه كانت من البيرو. كان قد تشرَّد وقتاً لا بأس به في بريطانيا، وكوَّن مع الرسام أميل برنارد وآخرين مدرسة للرَّسم أطلقوا عليها مدرسة "جسر افين" التي نشأت منها لاحقاً الحركة التركيبية في الفن التشكيلي، والتي كانت في خطوطها العريضة تهتم ببساطة الشكل والألوان المكثفة والتأثيرات الزخرفية. ساءت حالته النفسيَّة بعد أن هجرته زوجته صوفيا وهي ابنة وزير دنماركي، واستقرَّت مع أبنائها في الدنمارك. جاء بول غوغان إلى آرل وربما كان هارباً من نفسه ومن خيباته المتكررة. عاش مع فان غوخ لمدَّة شهرين، كان يحكي له فيها عن سنواته الأربع التي قضاها في البيرو برفقة والديه، وعن مباهج الحياة في لندن، وعن فتيات البيرو الساخنات، وتحدَّث بمرارة عن زوجته التي هجرته وحرمته رؤية أولاده، وقد كانت تتَّهمه دوماً بأنَّه رجلٌ لا يشعرُ بالمسؤوليَّة تجاه عائلته بسبب حالة "البوهيميا" التي أغرقَ نفسه فيها. كانت أيامهما تسير على نحو هادئ، وأنجزا فيها الكثير من اللَّوحات التي نالت استحسان ثيو في باريس، فكان يطالبهما بالمزيد.

لكن سرعان ما ساءت العلاقة بين غوغان وفان غوخ

فكانا يتشاجران معظم الوقت، ربما لانتفاء الخصوصيّة التي يحتاجها الفنان في عزلته. لم يتفقا أبداً، وشعرا بأن وجودهما معاً في مكان واحد خطأ كبير وغلطة لا تغتفر، فكان لا بد من أن يفترقا.

أُصيب بول غوغان بنوبةِ اكتئابٍ حادَّة بعد أن مات اثنان من أولاده في ظروف غامضة ما أدى به إلى محاولة الانتحار، لكنَّه نجا منها بأعجوبةٍ قبل أن يتركَ آرل وفرنسا برمَّتها ليستقرَّ في النهاية في جزر تاهيتي.

(٢٢)

الشهران التاليان اللذان أعقبا مغادرة غوغان آرل كانا سيئين لفان غوخ. فقد ساء الطقسُ، وعادت شهور الشتاء الطويلة الكئيبة ما كان يضّطره إلى المكوث في البيت وحيداً برفقة أفكاره السوداء التي تزداد سوءاً كلَّ وقت. اجتهد في تعديل مزاجه في محاولة للتأقلم مع برودة الأجواء ولكنَّه فشل كثيراً في محاولاته.

أصبحت حياته مقطَّعةَ الأوصال، بين مرض، ثمَّ شفاءٍ، ثمَّ مرضٍ وشفاءٍ... وهكذا.

أُصيب في نهاية الأمر بنوبةٍ عقليَّةٍ عصبيَّةٍ، فقطعَ شحمة أذنهِ اليُسرى بواسطة شفرةٍ حلاقةٍ، ثمَّ انهارت صحته وساءت! اكتشف حالته الصحيَّة أحد الفلاحين بعد أن سمع أنينه أثناء مروره مصادفة بجانب "البيت الأصفر"، فاستدعى الشرطة التي جاءت من الفور. أُدخل إلى مستشفى "هوتيل ديو" في آرل. مكث فينسنت في المستشفى تحت عناية الدكتور الحاذق فيليكس راي. عانى فان غوخ صحيّاً بعد أسبوع من تلك الحادثة الكثير بسبب فقدان الدم. طلب من طبيبه أن يستدعي أخاه ثيو من باريس. ربما شعر بدنو أجله. أرسل الدكتور فيليكس خطاباً عاجلاً إلى ثيو الذي أسرع بالمجيء من باريس. كان على يقين أن فينسنت

سيموت عطفاً على سجله المرضي المتسارع والمتدهور في الشهور السابقة، لكنَّه تعافى كلياً وفجأة مع نهاية ديسمبر وبداية يناير. ربما لوجود أخيه ثيو بجانبه عاطفاً وحانياً عليه، كما هي عادته دائماً، دورٌ في سرعة شفائه.

عاد فان غوخ بعد تعافيه إلى بيته الأصفر لكنَّه واصل زياراته إلى الدكتور فيليكس لإجراء الفحوص الروتينيَّة ولتغيير ضمادات رأسه. كان متحمِّساً بعد التوقُّف لكن مشكلاته الماليَّة استمرَّت. أصبح كثيرَ الإنتاجِ بعد تماثله للشفاء، فرسم بعض أعماله المعروفة مثل لوحة "زهور عبَّاد الشمس" ولوحة "زوج من الأحذية".

ولأنَّ روحه افتقدت الطمأنينةَ، والملاذَ، والخلاصَ، فقد أُصيب بنوبةٍ مَرَضيّة أخرى تخيَّل فيها نفسه أنَّه قد تجرَّع سُمّاً زعافاً، وأنَّه على وشك الموت. وتمَّ نقله إلى مستشفى "هوتيل ديو" للمعالجة، ومكثَ هناك أسبوعين، لكنَّه عاد مرَّة أخرى إلى "البيت الأصفر" بعد ذلك.

بسبب غرابة أطواره وصيحاته التي كانت تطرق مسامع الفلاحين، ومرضه الغريب، أصبح بعضُ سكَّان آرل قلقين في ذلك الوقت بسبب سلوكه قبل المرض وأثناءه وبعده. كان أطفال القرية يرشقونه بالحجارة وهو يرسم في الهواء الطلق فيضظر إلى الهرب منهم ليحمي نفسه من حجارتهم المصّوبة نحوه. اعتقدوا أنَّ به مسّاً من الجنون، وأصبح وجوده بينهم يشكِّل خطراً محدقاً بهم. وفي سبيل ذلك، كتبوا

التماساً سردوا فيه مخاوفهم على أنفسهم، وأطفالهم، وزوجاتهم، وسلَّموه لرئيس بلدية آرل، ثمَّ كتبوا التماساً آخرَ لمدير الشرطة الذي أمر فان غوخ بدخول المستشفى مرَّة أخرى حتَّى يشفى من مرضه تماماً. لبث في المستشفى شهرين، ولكن سُمح له بالمغادرة على أن يكون تحت الإشراف الطبي في بعض الأحيان، ولكي يرسم، ولوضع متاعه القليل في "البيت الأصفر". كان مثبطَ العزيمة واهن النفس. عاد إلى رسم الحقول المنتشرة حول آرل، ونهر الرون، وبينما كان ينتج بعض أفضل أعماله، أدرك أنَّ وضعه الماليَّ والصحيَّ غيرُ ثابت، وبعد مناقشات مع ثيو، وافق على العلاج في مستشفى "سان بول دي موسول" النفسيِّ في سان ريمي. ترك فان غوخ آرل حزيناً لمفارقته مكاناً محبّاً لنفسه ومريحاً لها، وقضى فيه سنوات من عمره لا تُنسى.

عند وصوله إلى المستشفى، وُضِع تحتَ عناية الدكتور بارون. بعد أنْ فحصه وراجع حالته وتاريخه الصِّحيّ، تكوَّنت لدى الطبيب قناعة مؤكَّدة بأنَّ مريضه يعاني مرض الصرع بلا أدنى شكٍّ. كلُّ أعراض المرض كانت واضحةً عليه. بعد أسابيع من مكوثه في المستشفى أصبحت حالة فان غوخ العقليَّة مستقرَّة نوعاً ما. طلب من طبيبه أنْ يسمحَ له بالعودة إلى ممارسة الرَّسم، فوافق. في منتصف يونيو، استكمل عمله الأفضل والأقرب إلى نفسه: لوحة "زهور

الخشخاش".

كتب لأخيه ثيو:

عزيزي ثيو:

إنَّهُ طريقٌ وعرٌ، لذَا علينَا توخِّي الحذرَ. تعرفُ كيفَ وصلَ الآخرُونَ إلى مَا كنَّا نتوقُ إليهِ، دعنَا نتَّبعْ الطريق السهلِ نفسه أيضاً. "صلِّ واعمل"، دعنَا ننجزْ واجباتِنَا اليوميَّة ونبذلْ أقصى مَا فِي وسعِنَا، بكلِّ مَا أُوتينَا مِن قوَّةٍ، ونؤمنْ أنَّ اللهَ سوفَ يجزينَا بعطائِهِ، ذلكَ الجانب لنْ يضيعَ هباءً، ممَّن يتضرَّعُونَ من أجلهِ بالدعاءِ. ومِن ثمَّ إذَا ظلَّ المرءُ معَ المسيحِ، فسيتحوَّلُ إلى خلقٍ جديدٍ، وتمضِي الأشياءُ القديمةُ بعيداً، وتختلفُ نظرتُه نحوَ الأشياءِ.

أخوك المحبُّ فينسنت

(٢٣)

أوفير سور واز – فرنسا، ١٨٨٩

بدأت حالته العقليَّة تسوء. نوبات التشنُّجِ تزايدتْ بعد دخوله المستشفى، وإذا مرت تلك النوبات بسلام، فإنها كانت فيما بعد تترك آثارها في روحه وجسده لأسابيع. في نهاية تلك الاضطرابات الصحيّة المتوالية، أُصيب بحالة نفسيَّة وعصبيَّة غريبة. كانت تنتابه موجات من الهذيان يعقبُها تمزيقٌ للوحاتهِ المرسومة، ثمَّ يحشوها في فمه محاولاً ابتلاعها. بسبب ذلك، عزله طبيبه في حجرةٍ فارغةٍ ومغلقةٍ، ولم يُسمحْ له بالوصولِ إلى لوحاته، ولم يُسمحْ له بالرَّسم أيضاً. أُصيب فان غوخ بالإحباط بعدما حُرِم الشيء الوحيد الذي يحبُّه، وهو ممارسة فنِّه. بعد مرور أسبوع من العزل الإجباري، وبعد استخدام بعض العقاقير المهدئة، سمح له الدكتور بارون باستئناف الرَّسم بعدما لاحظ أنَّ حالته العقليَّة مستقرَّة نوعاً ما. كان يستغلُّ المساء في كتابة الرسائل إلى أخيه ثيو. دائماً ما يحسُّ بنوعٍ من التعافي بعد كتابة الرسائل التي كانت تشكِّلُ له متنفسّاً بجانب الرَّسم. في تلك الرسائل، استفاض في وصف حالته المرضيَّة السيئة، وسكب مشاعره ومخاوفه وهواجسه لأخيه. أخوه ثيو كان مريضاً أيضاً، لذلك لم يجدْ الوقتَ للردِّ على الرسائل. لم يستطعْ فان غوخ مغادرة

غرفته لمدَّة شهرين لكنّه في الأيام التالية تغلّب على مخاوفه ومرضه مرَّة أخرى، واستمر بالرَّسم وكتابة الرسائل. داخله رغبةٌ لا تحتمل التَّأجيل في مغادرة المستشفى النفسيّ في سان ريمي. كان يشعر أنَّ استمراره في المكوث في هذه المصحَّة سيؤدِّي به إلى حالاتٍ مرضيَّةٍ ونفسيَّةٍ أسوأ. أرسل إلى ثيو رغبته ورجاه السعي في تحقيقها. لم يعدْ يطيق البقاء هنا. ربما كان التغيير مطلوباً لمن هو في مثل حالته الصحيَّة. طلب منه ثيو الانتظار ريثما يجد له مصحَّةً بديلةً ومناسبة لظروفه الماديَّة، وتحسبّاً لعودة تلك النوبات مرَّة أخرى.

عانى فان غوخ من نوبةٍ مرضيَّةٍ أخرى استمرَّت لأيام لكنَّه تعافى منها بسرعة، واستمرَّ في الرَّسم. مع بداية ١٨٩٠ أُصيب بنوبات ضارية كانت الأسوأ على حالته العقليَّة اليائسة الآخذة بالتَّدهور.

كانت الرسائلُ التي يتسلَّمها ثيو من أخيه تنبئ بمزيدٍ من سوء الحال. شعر بالخوفِ المتزايد عليه، ورأى أن من الأفضل لفان غوخ أنْ يعودَ إلى باريس ليكون قريباً منه ليسهل عليه التعامل مع أمراضه ونوباته النفسية. كان قد اتَّفق مع الدكتور بول غاشيه، أحد زبائنه المهمِّين الذين يشترُونَ منه اللَّوحات الفنيَّة لكبار الفنانين، أن يكون فينسنت تحت رعايته الطبيَّة. في مايو ١٨٩٠، ترك فان غوخ المستشفى النفسيَّ في سان ريمي. استقلَّ القطار عائداً

إلى باريس مرَّة أخرى.
كان ثيو في استقباله عند وصوله. استضافه في بيته لمدة ثلاثة أيام. كانت زوجة ثيو، جوانا، قد وضعتْ مولودهما الجديد فينسنت – الذي سُمِّي على اسم فينسنت –. مرَّة أخرى لم تكن باريس تلائمه، فقرر تركها! ساعده ثيو في إيجاد البديل، وأشار عليه بالانتقال إلى أوفير سور واز، الواقعة شمال غرب باريس، على بُعد ثلاثين كيلومتراً، فهي قريبة من باريس، وسيكون ثيو قريباً منه ليرعاه أفضل. أعطاه ثيو خطاب توصية لصديقه الدكتور غاشيه. التقى فينسنت الدكتور غاشيه بعد مدة قليلة من وصوله إلى أوفير. استطاع فان غوخ إيجاد غرفة لنفسه في إحدى المباني الصغيرة التي يملكها آرثر غوستاف رافو. بدأ الرَّسم من الفور. يدرك أنَّ للوحاته ذاكرة، ويعرفُ أنَّها ترشح من بين طبقات ألوانها نبضاً وروحاً وحياةً. لذا كان يستغلّ أوقاته بالرَّسم فلم يعد له سواه.
كان يشعر بالسعادة لوجوده في أوفير سور واز التي أعطته الحريَّة التي لم يحصل عليها في سان ريمي. وكان هذا اقتراحاً من الدكتور غاشيه. لم يدخله المستشفى بل قرر أن يجعله يعالج نفسه بفنِّه، الشيء الأقرب إلى نفسه! كانت بلدة أوفير سور واز موحيةً وملهمةً. انهالت عليه الموضوعات والأفكار الكافية لرسوماته. أسابيعه الأولى هناك انقضت بهدوء. زاره ثيو وجوانا وطفلهما الرضيع

برفقة الدكتور غاشيه ليقضوا عطلة عائليَّة قصيرة، لكنّها كانت ممتعة. بقي فان غوخ طوال يونيو في حالة نفسيَّة جيدة، وكان كثيرَ الإنتاج، فرسم بعض أعماله المشهورة مثل "بورتريه الدكتور غاشيه" ولوحة "الكنيسة في أوفير". علم فينسنت بعد ذلكَ بخبرٍ مؤلمٍ، هو أنَّ ابنَ أخيه فينسنت الصغيرِ أصبح مريضاً جدّاً. كان ثيو يمرُّ بأكثرِ الأوقات صعوبةً منذُ الشهور السابقة. بعد تحسُّن صحَّة الطفل الرضيع، قرَّر زيارة ثيو وعائلته. سافر في الصباح الباكر مستقِّلاً القطار إلى باريس. لبثَ معهم يوماً أو بعضَ يومٍ لكنَّه أحسَّ كأنَّ روحه المثقلة بالمرض والسوداويَّة المفرطة تبدِّد دفءَ البيت وسعادته. لم يطل مقامه، فعاد إلى أوفير سور واز. أثناء الأسابيع الثلاثة التالية، استأنف الرَّسم، وكان سعيداً، فقد بدا له أنَّ المرض يهادنه، ويرفق به.

(٢٤)

أوفير سور واز، ٢٧/٧/١٨٩٠

للمرضِ سطوتُه. يكمنُ قليلاً في الجسدِ حتَّى تقول لنفسك: لن يأتي مرَّة أخرى، ولكنَّه يفاجئك بالعودة بلا أيِّ مقدِّمات، وربما تكون أوبته أشدّ ضراوةً وعنفواناً.

حينما شعر ببوادر المرض تبدأ التَّصاعد، فتح أحد الأدراج في طاولة الكتابة. يتناول مسدساً من نوع ريفولفر، لم يعد يذكر كيف حصل عليه، ولا الأسباب التي دعته إلى اقتنائه، ولا كيف وُضِع هنا في هذا المكان. ينظر إليه، ويقلِّبه بين يديه. تتناوشه الأفكار السوداءُ ردحاً من الزمن. يلبثُ هكذا حتَّى يشعرَ بالإرهاق، فيعيدُه داخل الدُرج وهو يهذي:

- لمْ يحن الوقتُ بعد.

لكنَّ الوقتَ حان...

في مساء ٢٧ يوليو ١٨٩٠، تناول فينسنت فان غوخ المسدَّس. وضعه بين حزام بنطلونه وبطنه. وأثناء خروجه من البيت اصطدم بصره بلوحة "زهور الخشخاش" التي انتهى من رسمها بشكلها النهائي منذ ثلاثين شهراً بعد أن رسم لها بروفات كثيرة حتى وصل إلى الحد الذي أرضاه. ربما كانت هذه اللوحة أكثر لوحاته التصاقاً به. مرت شهور كثيرة فيها الكثير من الألم وقليل من الفرح وهو يعيد رسمها

مرّات عدة حتى توّقف عندما لم يعد هناك ما يضيفه إليه. تأمّلها مصوّباً نظره عليها كأنه غائب عن الوعي. كانت مركونة على الجدار الملاصق لباب المنزل. لكنه كان تحت وطأة أفكار سودٍ هاجمته في تلك اللحظة. غادر البيت وهو يهذي بكلماتٍ غير مفهومة. أخذ طريقه متَّجهاً نحو أحد حقول العنب. كان وقت الأصيل والشمس تدنو ببطءٍ نحو مستقرِّها اليوميِّ المعتاد. خُيِّلَ له أنَّه يسمعُ أصواتاً متداخلةً تقترب منه وتتصاعد حدَّتها رويداً رويداً حتَّى تصمَّ أذنيه. لم يخرجه من حجرته إلّا شعوره المتفاقم بالعزلة والوحدة التي اغتالت كلَّ شيءٍ في ذاته. لمْ يعدْ هناك شيءٌ يجلو شحوبَ دواخله المتعبة. الخوفُ من رهبة الشعور بلحظات النهاية لم تعدْ تشكِّل لديه فرقاً. ماتَ في صدره منذُ زمن طويل ألقُ الأشياء ودهشتها. ربما هي لحظة يأس هائلة لم يعرف لها مثيلاً جعلته يطلق على صدره رصاصةً. يشعر بها وقد اخترقت صدره، كأنَّها تسيرُ في ممرٍّ طويلٍ ومعتمٍ لا نهاية له. جثا على ركبتيه. رمى المسدَّس جانباً. وضع يده اليُمنى مكانَ الرصاصة. نظرَ إليها فرأى دمه أحمرَ اللَّونِ وشعر به ساخناً. نهض بصعوبةٍ على قدميه مرَّة أخرى، ثمَّ سار خطواتٍ قليلةً، ولكنَّه سقط في نهاية الأمر. اكتشف غوستاف رافو، مالك البناية، في واحدة من جولاته اليوميَّة المعتادة في الحقول المجاورة ما فعله فان غوخ بنفسه. رآه ممدَّداً على العُشبِ. اقترب منه. حاول إنهاضه على قدميه. وحينما

رأى المسدَّس، وبقعة الدم على ثيابه، انطلق مسرعاً ليستدعي الدكتور غاشيه، فجاء معه من الفور. كان فان غوخ قد فارق الحياة. حملوه إلى بيته. وضعوا جسده على سريره. أرسلوا رجلاً إلى باريس ليخبر ثيو ما حدث لأخيه. ترك ثيو كلَّ شيء وراءه وغادر باريس والحزن يكتنفه ويبث في نفسه كرباً وأسىً لا يمكن احتماله.

وصل إلى أوفير تسبقه دموعه ولوعته وحزنه. مات أخوه في سن السابعة والثلاثين. كان يراه عُمراً قصيراً، عُمراً ضاع أكثره مستباحاً بعِللٍ وأمراض واغتراب داخلي ووحدة قاسية أدت به إلى الموت المبكِّر.

لبث يتأمَّل جثَّة أخيه المسجاة في حجرة يلتصق الموت بسقوفها وجدرانها مثل سحابة سوداء حتَّى الساعات الأولى من الصباح. يتذكَّر جيِّداً العبارة التي ذيَّلها له في آخر رسائله له:

"إنَّ الحزنَ يدومُ إلى الأبدِ!".

كان ثيو معدماً لا يملك ثمن كلفة دفن جثّة أخيه. لاحظ الدكتور غاشيه ذلك الارتباك الواضح على ملامح وجهه. أدرك من الفور سبب هذه الحيرة الذي لم يستطيع حتى الحزن أن يخفيها. مدّ بحفنة من النقود إلى ثيو لكنه رفضها بحزم. أدار الدكتور غاشيه بصره في أرجاء البيت. لاحظ أنَّ هناك مجموعة من اللوحات التي فرغ من رسمها فان غوخ. كانت مثبتّة على حوامل خشبية وبعضها معلّقة على الجدار.

تناول ثلاث لوحات عشوائياً وكان من ضمنها "زهور الخشخاش". اقترب مرة أخرى من ثيو وهو حاملاً اللوحات وقال له:

- أدرك يا صديقي أنك لن تأخذ مالاّ بلا مقابل. لكن هذا المال الذي أعطيك إياه هو مقابل هذه اللوحات. هل اتفقنا الآن؟ خذ النقود، وجهّز لأخيك جنازة تليق به وبفنّه.

تناول النقود دامع العينين كسير القلل وبدأ يستعد لمراسيم دفن جثة أخيه.

بعد فراغه من مراسيم الجنازة والدفن وجد في جيب معطفه آخر رسائل فان غوخ التي لم يتمكن من قراءتها آنذاك. فتحها وقرأ:

أخي العزيز ثيو:

لقد خاطرت بحياتي من أجل عملي، وقد كلفني هذا نصف عقلي. أتفهم؟

أنت لست واحداً من أولئك الذين يتاجرون بالبشر، أنا واثق أنك تتعامل بإنسانية تماماً، لكن ماذا تتوقع؟

كأن الأخوان كان يربطهما حبلٌ واحدٌ جمع بين طرفيه الموت والحياة معاً. لم يطل بقاء ثيو، بل تُوفي بعد رحيل أخيه بستة أشهر. بعد موت أخيه شعرَ كأنَّ كلَّ الأحلام والذكريات والحاضر والمستقبل ماتت بموته. كانت روحه مثقلةً بالحسرة والكمد. ستة أشهر مرَّت صامتةً متوجسةً مثل شظايا أصوات تلاشت في ذاكرة ليلٍ كثيفِ الظَّلامِ.

دُفنَ ثيو كما أوصى في مقبرة أوفير سور واز إلى جانب أخيه فينسنت فان غوخ.

(٢٥)

مكَّة المكرَّمة، ٢٦/٨/٢٠٠٣

طال انتظاري ولم أحصل على جوابٍ من أيِّ خبيرٍ أو فنانٍ تشكيليٍّ راسلته!

لا أعرفُ لماذَا تجاهلوني؟

- هناكَ خطأٌ مَا!

هكذَا قلتُ لنفسي.

أخبرتُ فيصل بهواجِسي، فابتسمَ وقال لي:

- من الصعوبة أن يتجاوبوا معك، فلديهم من المشاغل ما يمنعهم من الرَّدِّ على رسالة من بين عشرات الرسائل التي تصل إيميلاتهم، ورسالتك من نوع الرسائل المريبة التي تجعل المرء يفكر عشرات المرات قبل الإجابة.

- وما هو الأسلوب الأجدى برأيكَ؟

ابتسامته زادت اتِّساعاً ثمَّ قال لي:

- الأفضل أنْ تأخذَ اللَّوحة إليهم لفحصها مباشرة. ولن يهتمُّوا بها إلّا إذا انتشر خبر حيازتك اللَّوحة إعلاميّاً، حينئذ فقط سيظهر لكَ ألفُ خبيرٍ وألفُ مهتمٍّ وألفُ مشترٍ، وألفُ سمسارٍ أيضاً!

أصابني الذعرُ من هذا الرأي. فكَّرتُ فيما قد يحدثُ لي بعد فعلي هذه الخطوة.

كان فيصل يلاحقني بنظراته:
- ماذا قلتَ في اقتراحِي هذَا؟
- لا أعرفُ!
- طالما اللَّوحة مخبَّأة عندك، ولم تطلعها على ذوي الاختصاص، فلن يهتمَّ لكَ ولهَا أحدٌ.
بدا كلامه لي منطقيّاً إلى حدٍّ كبيرٍ، ولكنَّ الأمرَ كلَّه برمَّته مجازفة كُبرَى ويحتاجُ إلى الكثير من الترتيبات. تخيَّلتُ ردَّ فعل العالم كلِّه عندما يعرفُ أنَّني أمتلكُ إحدى أندر وأغلى لوحات الفنان العالميّ فان غوخ.
عندما لاحظ فيصل حيرتي، قال لي إنَّه يعرفُ فناناً تشكيليّاً مرموقاً يعمل في التوجيه التربويّ في مدينة جدَّة. وقد سمعه يتحدث طويلاً مع نخبة من الفنانين وعِلية القوم والمتخصصين في مناسبة فنيّة عن لوحة فان غوخ المسروقة "زهور الخشخاش". سألته كيف تعرّف عليه؟ فقال لي إنَّه التقاه بصورة عابرة في تلك الحفلة الفنيَّة التي أُقيمت في مدينته قبل تعيينه هنا في الشركة. في نهاية اللقاء، تبادلا أرقام التليفونات والعناوين، واقترح عليَّ أنْ نذهبَ إليه دون أن نحمل اللَّوحة، ونعرض عليه الأمر مبدئيّاً لنستنيرَ برأيه.
واقفتُ على مضضٍ، وحدَّدنا يوم الأربعاء المقبل للذهاب إلى الفنَّانِ التشكيليِّ المشهور والمقيمِ ي جدَّة. طلبتُ من فيصل أنْ يتَّصلَ به هاتفيّاً ليخبرَه بقدومنا، فقال لي: بكلِّ

أسفٍ فقدتُ أرقامه، ولكنّه يعملُ موجِّهاً تربويّاً، وحتماً سنجده في مبنى إدارة تعليم جدَّة. الأمرُ لا يحتاجُ إلى كثيرٍ من التفكير.

حينما أخبرتُ زوجتي عن سفري إلى جدَّة، سألتني عن السبب، فقلتُ لها كاذباً إنَّني سأرافقُ صديقي فيصل لشراء بعض المستلزمات الناقصة لبيته.

سافرنا إلى جدَّة. وليتنا لمْ نسافر!

لم يطلْ مكوثنا في جدَّة، وكان لقاؤنا بالفنَّانِ التشكيليِّ الذي يعد من أشهر فناني المدينة مخيِّباً للآمال!

ذهبنا في بادئ الأمر إلى مبنى الإدارة التعليميَّة في جدَّة، وسألنا عنه بالاسم، فقِيل لنا أنَّ التوجيه الفنيَّ والرياضيَّ يقع في مكان آخر ومبنى مستقل شمالي جدَّة، شرق كوبري البيبسي، بجانب استاد وزارة المعارف.

ذهبنا إلى هناك وليتنا لم نذهب!

وجدنا رجلاً منتفخاً بالكِبرِ ومغروراً وذا ملامح يغلبُ عليها الطابعُ الكئيبُ، مع روح ناقمة تجعلكَ تشمئز من الحياة. كان ينظر إلينا شذراً، وحينما عرَّفه فيصل بنفسه، قال له ببرود إنَّه لم يسبق له أن التقاه! وعندما ذكَّره فيصل بالمناسبة التي التقيا فيها وتبادلا خلالها حديثاً عابراً، هزَّ رأسه، وتعلَّل بصوتٍ خفيضٍ، وبكلماتٍ مقتضبةٍ، بأنَّ المشاغل تُنسي المرءَ حتَّى نفسه!

بلع فيصل خيبة أمله وشعر بالحرج مني!

تأمَّلتُ هذا الرجل المتعجرف، كانَ رثّ الهيئةِ، يلبسُ الغترةَ والعقالَ بطريقةٍ سيّئةٍ مثلما يلبسها بشكل مضحك الممثلون الأميركيون الكومبارس في أفلامهم عندما يريدون تمثيل شخصيّة عربيَّة. كان جامدَ الملامحِ، ومستفِزاً بأسلوبه في الكلام المتقعِّر، ولا مبالٍ، ويغلبُ عليه الطابعُ المدرسيُّ في كلِّ شيءٍ في حركاته وسكناته حتَّى في طريقة الحديث. وقد تعامل معنا ببرود وبريبةٍ، ولم يكتف بذلك، بل نهضَ من فوق كرسيّه مغادراً وتركنا بأسلوب فجٍّ في حجرة المكتب وحدنا، بلا حياء ولا خجل، ولا حتَّى كلمة اعتذار!

سألتُ نفسي بمرارة: هل مثلُ هذا يصحُّ أنْ نطلقَ عليهِ فنَّاناً تشكيليّاً!

كان معه في القسم نفسه موجِّهٌ تربويٌّ مصريُّ الجنسيَّةِ، أشيبُ الشعرِ، لاحظتُ أنَّه كان ينصتُ إلى حديثنا باهتمامٍ، ويشارك فيه أحياناً، وكان يُضطّر إلى السكوت عندما يلتفتُ نحوه رئيسُ القسم ويسلِّط عليه نظرةً حادّةً مؤنِّبةً، فيلتزم الصمتَ. بعد انصراف "الفنَّان التشكيليِّ"، وعندما لاحظ سوءَ تعامله معنا، نهض من فوق كرسيّ مكتبه، واقترب منَّا، وقال لنا بأدبٍ جمٍّ:

- إنَّني آسفٌ يا سادة لما حدث لكم، ولكنْ لا تتعبُوا أنفسكم مع هذا الرجل. هل أستطيعُ إسداءَ خدماتي لكم؟

أخبرناه بسبب زيارتنا هذا الرجل. كان يستمع لفيصل وهو واجمٌ وقد بدا عليه الاهتمامُ والتركيزُ. سكت فيصل بعد أن

أنهى حديثه، ثمَّ شملنا جميعاً قبل أن يقطعه ذلك الرجل الأشيب عارضاً علينا أن يزوِّدنا بأرقام هواتف خبراء وفنانين تشكيليين مصريين ليقدِّموا إلينا المشورةَ والرأي. شكرناه وقد وعدناه أنَّنا سنلجأ إليه في حال احتياجنا خدماته. صافحناه بحرارةٍ وقفلنا عائدين إلى مكَّة.

(٢٦)

عدت من جدَّة خالي الوفاض، وأصابني اليأس، وفكرت في كلام فيصل عن أنّه لا بد أن يكون هناك زخم إعلامي يواكب اللَّوحة التي معي. لا بد أن أكشف عن كنزي لأحظى بالاهتمام، ولكنني لن أكشف عنه حتَّى أتحقّق من أنّه كنز حقيقي وليس مزيفاً. لن يصدق الناس بسهولة أنني أمتلك لوحة عالمية حتَّى لو وقفت في منتصف الشارع وصحت بأعلى صوتي: أيها الناس، انظروا إلى هذه التحفة التي في يدي، إنها إحدى لوحات الفنان العالمي فان غوخ، وإنها تعادل ملايين الريالات والدولارات.

توسعّت في سرد بعض ردود الفعل في خيالي: سيقولون حتماً إنني مجنون أو رجل تعتعه السُكر، وربما تمّ إيداعي مستشفى المجانين إذا خرج الأمر عن السيطرة!

لكن السؤال الذي يثير حيرتي: كيف سأعلن لوسائل الإعلام هنا أنني أمتلك لوحة عالميّة لفنان عالمي؟

بمثل هذه الهواجس والأفكار، عدت إلى بيتي. وصلت إلى باب البناية فوجدت جاري المُسن "أبو فياض" واقفاً على البوابة. ما إن رآني حتَّى أقبل نحوي متكئاً على عكازة. مدّ يده إلي مصافحاً شاكراً فضلي. استغربت كلامه، فلم أجد بُداً من أن أقول له:

- الفضل لله من قبل ومن بعد، عمي "أبو فياض".

ودَّعته، وصعدتُ إلى الدور الثَّاني حيثُ شقَّتي. وجدتُ زوجتي تشاهدُ باهتمامٍ برنامجاً نسائيّاً في التلفزيون. ألقيتُ عليها التحيَّة، ودلفتُ إلى حجرة النوم. بدَّلتُ ملابسي. اتَّجهتُ إلى الحمام، غسلتُ وجهي، ثمَّ مشيتُ نحوها في الصالة. جلست بجانبها أشاركها المشاهدة، فشعرتُ بعد قليلٍ بالسأم. سألتني هل أريدُ أن تعدَّ لي العشاء؟ شكرتُها وقلت لها إنني قد تناولت عشائي في أحد المطاعم. سألتني عن مشوارنا إلى جدَّة ماذا فعلنا فيه؟ فقلتُ لها: وجدنا بعض الأشياء المفيدة لبيت زميلي فيصل. قالت لي وهي لا تزال تتابع التلفزيون دون أن تنظر نحوي:

- ومتى ستأتي زوجة صاحبك؟

- لا أعلم.

لا أدري لماذا خمَّنتُ أن زوجتي وزوجة فيصل ستكونان صديقتين حميمتين، وخفقت دقات قلبي عندما خطر لي أنَّنا سوف نتبادل الزيارات، وربما سأحظى – لو بالمصادفة – برؤيتها شخصيّاً بعيداً عن الصورة المسروقة. وطافت في مخيِّلتي صورٌ عدة لها. هل هيئتها وشكلها وملامحها مثل الصورة التي اختلستها من ألبوم صور زواجهم، أم تختلفُ اختلافاً جذريّاً عن الصورة الفوتوغرافيَّة؟

غادرتْ زوجتي إلى بعض شؤون البيت وجلست بمفردي في الصالة. بعد حوالى ساعة قضيتها مستلقياً على المقعد

الإسفنجي الوثير المواجه للتلفزيون، شعرتُ بالملل يتسلّل لي. كنت أستمع إلى شيخ غليظ الملامح يتحدّث بشكل متشنّج في إحدى القنوات الفضائية التي انتشرت كثيراً في الوقت الأخير. كان يصرخ في جمهور من الحاضرين قائلاً إنَّ الرجل الذي لديه جوال توجد فيه كاميرا هو رجل ديوث... ديوث... ولبث يكرر هذه الكلمة متصنّعاً البكاء، معدداً الأخطار والمفاسد المحتملة التي سوف يقع فيها لمن أراد أن يقتني مثل هذا النوع من الهواتف. تحسست جوالي متأففاً ونظرتُ إلى ساعتي فإذا بها تشير إلى العاشرة والنصف مساءً. كنَّا قد قضينا جزءاً من الوقت، أنا وفيصل، في مقاهي كورنيش جدَّة. شربنا الشاي، ودخنَّا الشيشة في أفخم مقاهي الكورنيش الجميل والممتع. أمضينا سحابة نهارنا وجزءاً من الليل في التسكُّع في المولات المنتشرة في جدَّة حتَّى السابعة والنصف قبل أن نعود أدراجنا إلى مكَّة. توقَّفنا في أحد المطاعم الواقعة بين مكَّة وجدَّة على الطريق السريع المزدحم، وتناولنا عشاءَنا قبيل العودة.

فكَّرتُ أن أفتح جهاز الكمبيوتر واطَّلع على بريدي الإلكترونيِّ لعلَّني أجدُ ردّاً على رسائلي الكثيرة التي بعثتُ بها إلى المهتَّمين بالشأن الفنيِّ، ولكنَّني أرجأتُ الفكرة إلى ما بعد صلاة الفجر حينما يكون الوقتُ ملائماً. أنهت زوجتي مشاغلها وجاءت وجلست بجانبي. أمسكتْ "الريموت كنترول" وأخذتْ تتنقّل من قناة إلى أخرى. شعرت بالتعب

يدق مفاصلي والنوم يغزو عيني. استأذنتُ منها للذهاب إلى النوم. استلقيتُ على فراشي. أطفأتُ مصباحَ الأباجورة الموضوعة على طاولة قصيرة بجانب السرير. كانت مشاهد رحلتي برفقة فيصل إلى جدَّة تتوالى في مخيِّلتي. فكَّرتُ جديّاً في طلب نقلي إلى جدَّة، فهي مدينة تبدو لي صالحة للعيش. هناك البحرُ وقليلٌ من الحريَّة وكثيرٌ من الجمال المنثور حتَّى في شوارعها الجميلة وميادينها المزدانة بأعمال مجسَّمة لكبار الفنانين من مختلف دول العالم.

كنتُ غارقاً في لُجَّة أفكاري وفجأةً سطع نور الحجرة فبدد الظلام بلمح البصر. فركتُ عينيَّ لأجدَ زوجتي واقفةً على الباب وقد ارتدت "الكلوت" و"السوتيان" اللذان يشبهان الملابس المثيرة التي كانت تلبسهما زوجة فيصل في الصورة المسروقة. فركت عينيَّ أكثر ونظرتُ نحوها. كانت واقفة تبتسم في استحياء وخجل، ولوهلة قصيرة عقدت مقارنة بينها وبين زوجة فيصل وهما ترتديان الملابس نفسها، فاتَّضح لي الفرق الشاسع بينهما: زوجة فيصل تتغلَّب بالرشاقة والجسد المتناسق، وزوجتي تميل إلى للبدانة وقصر القامة، زوجته بيضاء اللون تسرُّ الناظرين، وزوجتي تميل إلى اللون القمحيّ الغالب على النِّساء هنا. ولكي لا أستغرق في عقد المقارنة فتذهب الليلة سُدىً وبلا طعم، طردتُ خيالاتي المأزومة ونحّيتُها قليلاً.

أشرتُ إليها بالاقتراب، فأقبلت تمشي على استحياء.

(٢٧)

القاهرة، ١٦/٥/١٩٧٧

أمعن الطبيبُ النظرَ في الفحوص غير عابئ بوجوده. كان يجلس قبالته في صمتٍ وابنته الصغيرة مها بحضنه. بعدَ أقلِّ من دقيقة هزَّ الطبيبُ رأسه وقال موجِّهاً كلامه إليه دون أن ينظرَ نحوه:

ـ كإجراء إحترازي لا بدَّ من تنفيذ عمليَّة استئصال الكِلية التالفة بسرعة قبل أن تؤثِّر في الأخرى السليمة.

توقَّف قليلاً، ثمَّ استطرد بنبرةٍ شابها هدوءٌ قاتلٌ متعارفٌ عليه عند غالبية الأطباء:

ـ هو مجرد عمل وقائي كما قلت لك، وكلَّما أُجريت العمليَّةُ في سن أصغر، كان ذلكَ أفضل لها مستقبلاً.

كانت ابنته مها تعبث بدمية صغيرة بيدها، وتنقلُ بصرها بين أبيها والطبيب. حملها بيديه، ووضعها على المقعد الشاغر بجانبه. سدَّد بصره نحو الطبيب بعينين غائمتين، وقال له:

ـ كم ستكلِّف عمليَّة الاستئصال يا دكتور؟

أعاد الطبيبُ أوراق التقارير داخل المظروف الأبيض الكبير الحجم. أزاح نظارته من فوق عينيه ووضعها على المكتب. تراجع قليلاً بظهره إلى الوراء. هذه المرَّة نظر نحوه وقال:

ـ سبعة آلاف جنيه تقريباً، شاملةَ التحاليلَ، والتنويمَ، وأتعابَ الأطباءِ، وأيَّامَ النقاهةِ.

شعرَ بشيءٍ مثل نارٍ تلسعُ أعماقه. كان قد وضع سقفاً للتكلفة في عقله، ولكنَّ المبلغ الذي ذكره الطبيب فاق كلَّ توقُّعاته. حمل ابنته وخرج. في التاكسي أثناء طريقه إلى البيت، كانت الأفكار تتصارع في رأسه. شيءٌ مثل غبار وضباب كثيف اختلطا معاً، فحجبا صورة ما في رأسه، ومع اقترابه من البيت اتَّضحت الصورة المبهمة. كانت تلك الصورة التي انقشع عنها الغبار والضباب هي لوحة "زهور الخشخاش" المعلَّقة على أحد جدران المتحف في الدور الثاني في الصالة B تحديداً.

في البيت، وجد زوجته بانتظاره. كانت متلهِّفةً لمعرفة ما صدر في التقرير الطبيِّ، وحين أخبرها بما قاله الطبيب وذكر لها المبلغ الماليّ المطلوب لإجراء الجراحة العاجلة، تهالكتْ على أقرب كنبة، ثمَّ بدأت البكاء. نظر إليها بحنوٍّ. شعر برغبةٍ مُلحَّةٍ في أن يحضنها ليخفِّفَ بكاءها ونشيجها الذي بدأ يتعالى. خاف أنَّها سوف تنهره وتصرخ في وجهه مثل كلِّ مرَّة. حاول أن يتذكَّر آخر لقاء زوجي حميم بينهما، ولكنَّه فشل في تحديد متى كان. انقطعت العلاقة بينهما عندما توطَّدت أواصر الصداقة بينه وبين محسن الرمَّال وزادت سوءاً عندما باح لها برغبته في الهجرة ليُحسّن وضعهم المعيشي المتردي. لكن الأحلام والأماني تبخرّت مع مرض

ابنته. حتى زوجته طالما خيَّرته بين البقاء معهم، أو مع محسن، أو السفر خارج مصر، ولكنَّه كان لا يسمع شيئاً ممَّا تقول، ويتجاهله ويضرب به عرض الحائط. مرضُ ابنتهما الوحيدة قرَّب قليلاً المسافة بينهما، ولكنَّه تقاربٌ حَذِرٌ بمكن في أيِّ لحظة أن يتحوَّل إلى تصادمٍ وخصامٍ وصراخٍ، وتبادلٍ للاتِّهامات، وربما الصفعات. اكتشفوا مرضها عن طريق المصادفة المحضة. قبل شهر ونصف، في منتصف الليل، نهضت أمُّها على صراخها. كانت تتقيأُ وتبكي، وتضغط على الجزء الخلفي من ظهرها، وتتوجَّعُ. هو لم يكنْ في البيت آنذاك. كان في شقَّة الكيت كات مع محسن الرمَّال في سهرة "كيف" عارمةٍ. طرقتْ أمّها بابَ بيت جيرانها وهي تبكي. فتحوا لها الباب، ومن بين دموعها أخبرتهم بما حدث لابنتها. اضُطر جارهم الطاعن في السن أن يصحبها، هي، وابنتها، إلى أقرب مستشفى. أدخلوها الطوارئ. كشفَ عليها الطبيبُ، وقال إنَّه يشتبهُ في إصابتها بفشلٍ كلويٍّ، ولكنْ كلُّ شيءٍ سيتَّضحُ بعد عمل بعض التحاليل والفحوص. انهارت أمُّها على أرضيَّة المستشفى باكيةً. يتذكَّر عودته بعد يومين من سقوط ابنته في المرض. وجدها نائمةً في الفراش وحولها على طاولة قريبة أدوية ومحاليل مدرَّة للبول، وأمّها نائمة بجانبها على السرير. استفاقت فزعةً عندما هرع صارخاً وجلس بجانب ابنته وهو يناديها بلوعة: "مها... مها". شعرتْ به ابنته، احتضنته وهي تغالب النوم والألم.

التفت نحو زوجته وسألها: ما الذي حدث؟ ما بها مها؟ ولماذا كلُّ هذه الأدوية؟ صرخ في وجهها: ما هذا؟ لكنَّها أشاحت بوجهها عنه. هدأَ صراخه، وغيَّر نبرته، وطلب منها برجاء أنْ تخبرَه بما حدث. رجته أن يذهبا إلى حجرة نومهما التي هجراها منذُ زمن طويل. وهناك أخبرته بما قاله الطبيب، وقالت إنَّها تحتاج إلى مزيد من الفحوص. صمتتْ عن الكلام. توقَّع أنَّها سوف تسمعه كلمات التأنيب نفسها، والتنقيص من رجولته، ولكنَّها صمتتْ! تذكَّر كلَّ هذا وهو واقف أمامها ورغبته في احتضانها تتصاعد. عزف عن هذه الفكرة. عادا إلى حجرة الطفلة ولم يجداها في الحجرة بل كانت في الصالة. نظر نحوها بحنوٍّ. كانت تشاهد أفلام الكرتون في التلفزيون وهي تضحكُ وتتفاعلُ مع ما تراه يحدث أمامها في الشاشة. شعر بحزنٍ دفينٍ ومُرٍّ انبعث من أعماقه. وضع احتمالاً في أنَّ القدر سوف يسلبمها منه، فأطبق فكيه على أسنانه من القهر، وكاد يبكي. تجرَّأ أخيراً. مدَّ يدَه ووضعها بلطفٍ على كتفِ زوجته الواقفة بجانبه. توقَّع أنَّها سوف تبعد يدَه بعنفٍ، لكنَّها استكانت، وزاد بكاؤها. مكثَ على هذه الحال ثوانٍي قبل أن يزيحَ يدَه من فوق كتفها. سار نحو مخرج الشقَّة. فتح البابَ، وغادر البيتَ سريعاً لا يلوي على شيءٍ نحو شقَّةِ محسن في الكيت كات.

(٢٨)

مكَّة المكرَّمة، ٢٧/٨/٢٠٠٣

استيقظتُ من نومي مفزوعاً بسبب كابوسٍ مخيفٍ. كثير من مثل هذه الأحلام المفزعة بدأتْ تزورني في الآونة الأخيرة بسبب هذه اللوحة التي أمتلكها الآن. تفكيري المتواصل في ماهيَّة الخطوات المقبلة للتعامل الأمثل مع كنزي يشغل كل وقتي. نظرتُ إلى ساعة الجوَّال، كانت تشيرُ إلى الثالثة والنصف فجراً. كانت زوجتي نائمةً بجانبي. دائماً كنتُ أغبطها على سرعتها في الاستغراق في النوم. كان نومها ثقيلاً، ومن النادر أنْ تستيقظَ إلّا بسبب ضجَّةٍ قويةٍ تحدث حولها وقريباً منها. على عكسي تماماً، يمكنني الانتباه من النوم لدى أدنى حركة أو صوت، ومن الصعب أنْ أعود إلى النوم العميق بعدها إلّا بعد بذل مزيد من المحاولات المضنية. خطر في بالي أنْ أذهب في جولة ليليَّة للاطمئنان إلى "كنزي". هذا هو الوقت الملائم لأتفقَّده. قمتُ من فوق الفراش بحرصٍ، وقرَّرتُ أن أعود بعد الاطمئنان للاطلاع على بريدي الإلكترونيّ لعلَّ وعسى أجدُ مَن يفيدني ممَّن راسلتهم من الخبراء ودكاترة الجامعات.

فتحتُ باب حجرة النوم بهدوءٍ، وتركته مواربا حتى عودتي. خرجتُ من باب الشقَّة بعد أن تلفَّت يميناً ويساراً فلم

أرَ شيئاً. صعدتُ السلّمَ الموصلَ إلى السطحِ بخطواتٍ حذرةٍ. وصلتُ إلى السطح. كان القمرُ بدراً وفي أوجِ اكتماله. كنَّا في منتصف الشهر الهجريِّ. ضوؤه ينشرُ في المكان شيئاً مثل الإحساس الغامر بدفءِ الحياة وعنفوانها. توقَّفتُ قليلاً لالتقاط أنفاسي. أجلتُ ببصري فيما حولي: كلّ شيءٍ كان ساكناً. لمحتُ أضواء الأعمدة الكهربائيَّة في الشوارع البعيدة بلونها البرتقاليّ تومض وترتعش قليلاً. وقع بصري على مسجد الراية الذي بُني أثناء فتح مكة في المكان الذي غرس فيه خالد بن الوليد رايته وصلى فيه. كان يبدو لي بلونه الأبيض مثل بقعة ضوء انبثقت من ظلام دامس. تأملت مئذنته الوحيد الأنيقة والأسطوانية الشكل المغروسة في قاعدة مربعة ومكسوة بالرخام. تجوَّلت في السطح قليلاً متأثِّراً بهذا السكون المريح للعقل وللجسد. هذه راحة البال التي افتقدتها كثيراً في الأيام القليلة الماضية. اقتربتُ من الحجرة التي تحوي كنزي الثمين. قبل وصولي بخطواتٍ قليلةٍ فوجئتُ بالباب مفتوحاً. وجف قلبي وبدأتْ نبضاته تتسارع. تحفَّزتْ حواسّي واستيقظتْ كلها دفعةً واحدةً. بقفزةٍ أو قفزتين، وجدتُ نفسي أمام الباب مباشرةً. توقَّفتُ لثوانٍ قليلة قبل الدخول. كلّ جزءٍ من جسدي كان متوتراً وحواسي في حالة استنفار تام. كتمتُ أنفاسي، ثمَّ دخلتُ إلى الحجرة. كانت مظلمةً من الداخل. تحسَّستُ كالمجنون بيدي الجدار بحثاً عن مفتاح الإضاءة. عثرتُ عليه وضغطته للأسفل.

انقشع الظلامُ فجأةً. أغمضتُ عينيَّ رغماً عنّي متحاشياً سطوعَ الضوء المنهمر. بعد ثوانٍ قليلةٍ تأقلمتْ عيناي مع النور الذي كان يملأ أرجاء الحجرة. درتُ ببصري فيها باحثاً عن المقعد الجلدي. لم يكن هناك شيءٌ سواه يهمّني. بحثتُ عنه لكنَّه لم يكن موجوداً. لسعةٌ من نارٍ شعرتُ بها تكوي جوفي. معظمُ الكراكيب لم تكنْ موجودة. لا الطاولات، ولا الكراسي، ولا الأرائك، ولا الدواليب. لم يبقَ سوى قطعٍ من أثاثٍ لم تعدْ صالحةً بأيّ حالٍ للاستخدام. كنتُ أقفز في أرجاء الحجرة باحثاً عن مستودع لوحتي الثمينة لكنَّه لم يكنْ موجوداً!

أمسكُ ببقية الألواح والكراتين الملقاة على الأرض، وأطوِّح بها يميناً وشمالاً مثل المجنون. لم أجدْ ما كان مخبئاً داخل المقعد الجلدي. تهالكتُ وجلستُ على الأرض وأنا أشعرُ بجفافٍ في فمي. سال عرقي بارداً. انهالت الأسئلة على رأسي: أين هو؟ ومَن أخذه؟ هل سُرقت الحجرة؟ من المؤكَّد أنَّها تعرَّضت للسرقة. متى حدث هذا؟ هل حدث عندما كنتُ برفقة فيصل في جدَّة لزيارة الفنَّان التشكيليِّ؟

نهضتُ مرَّة أخرى على قدميَّ وانطلقتُ عائداً إلى الشقَّة. تعثَّرتُ على الدرج وكدت أقعُ لولا تشبُّثي بالدرابزين. طارت فردة من حذائي وسقطت عبر فرجات أعمدة الدرابزين. سمعتُ صوت سقوطها في الساحة المبلّطة الواقعة أمام بوابة الدخول في الأسفل محطَّمة سكون الليل الموشك على

الانصرام. وصلتُ إلى الباب، دلفتُ إلى الداخل. أضأتُ أنوار الصالة كلّها بخبطةٍ من يدي على مفاتيح تشغيل النور. اتَّجهتُ بخطواتٍ سريعةٍ نحو غرفة النومِ. من النور المتسرِّب من الصالة، لمحتُ زوجتي نائمةً. أضأتُ نور الحجرة. شعرتُ بنوع من الغيظ يدبُّ داخلي. صرختُ عليها بأعلى صوت:

- انهضي يا وفاء.

تململتْ قليلاً لكنَّها لم تنهض. صرختُ مرَّة أخرى: "وفاااااء انهضي من النوم". فانتبهتْ من نومها مفزوعةً. سحبت عليها اللّحاف لتسترَ عُريها. كانت تفركُ عينها وتحجب بظاهر يدها اليمنى النور الساطع الذي انتهك ظلام الحجرة:

- ما بكَ؟ لماذا تصرخُ هكذا؟ ما الذي حدث؟

- المقعد... أينَ المقعد؟

- المقعد؟ أيّ مقعد يا رجل؟

حاولتُ استعادة تنفُّسي، ورباطة جأشي، وتذكَّرتُ أنَّني لم أخبرها بعد بما نملكه من كنز. قلتُ لها وقد أمسكتُ بصعوبةٍ بزمامِ نفسي:

- المقعد الجلدي وبقايا الأثاث التي في حجرة المخزن فوق سطح البناية.

- ماذا تريدُ بها؟

- ليس هذا وقت الأسئلة يا وفاء. بربِّكِ أخبريني فقط أينِ

هو؟
- لقد تبرَّعتُ بها!
صرختُ مفزوعاً:
- تبرَّعتِ بهَا! لمَن؟
- لجارنا أبي فياض وزوجته المريضة.
- ومَن سمح لكِ بذلك؟
انكمش وجهها وبدا الغضب يتدرَّج إلى ملامحها الناعسة.
لاحقتُها بالأسئلة:
- ومتى حصلوا عليه؟
- اليوم بعد الظهر. جاؤوا بعمالٍ من الجنسيَّة البنغاليَّة ونقلوه.
صرختُ في وجهها:
- نقلوه؟ إلى أين؟
- لا أعرفُ. ربَّما باعوه أو حملوه إلى بيتهم في الأسفل.
كدتُ أبكي من القهر والغيظ. وضعتُ يدي اليُمنى على وجهي، وتهالكتُ على طرف سرير النوم. كنتُ في اضطرابٍ كبيرٍ شلَّ تفكيري تماماً. رفعتُ رأسي بعد قليل ورأيتها لا تزال تنظر نحوي باستغرابٍ ودهشةٍ. قطعَ صمتَنا المتوتر سؤالُها:
- أخبرني ما سرُّ اهتمامك بهذا الأثاث المتهالك؟
لم أجب سؤالها، فقد كنت في شغل شاغل عنها.
- لماذَا أنت غاضبٌ هكذا؟ لم أعهد عليكَ بُخلاً أو سلوكاً

مثل هذا!

ماذا أقول لها؟ معها كلُّ الحقِّ في تساؤلاتها وذهولِها، ولكنَّني كنتُ في غنى عن كلِّ شرحٍ أو تفسيرٍ. قلتُ لها بحزمٍ وأنا أقفُ على قدميَّ:

- لا بدَّ من استرجاع الأثاث القديم من جارنا العجوز.

لم أشأ أنْ أقولَ لها المقعد الجلدي، وهو الذي يهمُّني فقط، حتَّى لا يصيبها الشكُّ. هزَّت رأسها، وقالت بهدوءٍ – أحسدها عليه – وبنبرةٍ مغلَّفةٍ بسخريةٍ مبطَّنةٍ:

- الأمر في غاية البساطة، كلُّ ما عليكَ فعله يا زوجي العزيز أنْ تذهبَ إلى جارنا أبي فياض، واطلبْ منه أنْ يعيدَ إليك الأثاث القديم والمتهالك الذي أهديناه له!

وجدتُ نفسي أقولُ لها بغضبٍ:

- أنا لمْ أهدِ أيَّ شيءٍ لأيِّ شخصٍ!

- هل تلومني على تبرعي بكراكيبَ مهملة لجارٍ مسكينٍ لا يكادُ يملكُ شيئاً من الدُّنيا؟

غلبني منطقُها ولم أجدْ بدّاً من أنْ ألوذَ بالصمتِ.

(٢٩)

القاهرة، ٤/٦/١٩٧٧

قفزَ من فوق السور المحيط بالمتحف بخفَّةٍ قطٍّ. لم يخنه جسدُه المدرَّب تدريباً جيِّداً منذُ أيام نجع حمادي. رنا ببصره نحو المتحف المشيد على الطراز الفرنسي "الآرت نوفو" الرابض في العتمة إلّا من أضواء قليلة خافتة تنبعث من بعض حجرات الحراسة الموزَّعة هنا وهناك في أركان الفناء الواسع المحيط بالمتحف. يعرفُ تماماً العادات اليوميَّة التقليديَّة لحرَّاس المتحف. مطمئن تمام الاطمئنان أنَّهم يغطُّون في نوم عميق الآن. أكثرهم يتعاطي الحشيش المضروب الرخيص الثمن. يدخنُ الواحد منهم كم "جوزة"، فيغرق في النوم مثل ميت. رتابة عملهم وغياب مفاجآت فيه لسنواتٍ مديدةٍ جعلهم ينامون وهم مرتاحون، فلا شيءَ يشغل بالهم. طلب من إدارة المتحف إجازةً ليتمكَّن من الاعتناء بابنته المريضة، التي تحتاجُ إلى عمليَّة التخلُّص من كِلية لم تعدْ تعمل. وافقوا على طلبه. فكَّر في الطلب من إدارة المتحف سلفة نقديَّةً بضمان راتبه لكنَّهم لن يعطوه شيئاً، فالمتحف عائداته ضئيلة لا تكاد تغطي نفقاته الأساسيَّة، ولولا الدعم الحكومي، لأقفل أبوابه منذ زمن بعيد. زوجة صاحب المتحف إميلين هيكتور دائمة الإقامة في باريس منذُ

مات زوجها في ١٩٥٣.

لمَن يلجأ؟

المبلغُ الذي حدَّده الطبيب كان فوق طاقته. فكَّر مليَّاً قبل الإقدام على هذه الخطوة، وقبلها فكَّر في حلول عِدَّة لكنَّها دائماً ما تنتهي إلى طريقٍ مسدودٍ. سيسرقُ لوحة من ضمن ثلاثمئة لوحةٍ في هذا المتحف. يدركُ تماماً أنَّ عمليَّة استرداد لوحة مسروقة سيكون سهلاً، خصوصاً عندما تكون مسجَّلةً باسم مالكها، أطال الزمن أم قصر، ستعود إليه. قال محسن له هذا الكلام من باب التشجيع، وأضاف:

حتَّى يربك اللّصوص، سيعلن مالك اللَّوحة للملأ أنَّ اللَّوحة المسروقة ليست سوى نموذج متقن من اللَّوحة الأصلية المحفوظة في مكانٍ أمين تحسُّباً لمثل هذه الظروف، حينئذ سيُصاب اللَّصوص بالحيرة إزاء ما سرقوه، ولكنهم باتوا يدركون مثل هذه الحيلة، وهذا لن يمنعهم من التفكير في أن اللوحة التي بين أيديهم هي الحقيقية. سيضعون احتمالاً قدره خمسون بالمئة أنها حقيقية وخمسون بالمئة زائفة. ربما سيعمدون إلى بعض الخبراء ولكن بحذر بعد دفع مبالغ طائلة لشراء سكوتهم ليتأكدوا من زيف أو أصالة اللوحة.

حتى الفحوص التي توضح الزائف من الحقيقي للوحات تكون في أحيان كثيرة غير مُجدية ولا تعطي النتائج المرجوة. سيتبادلها السماسرة فيما بينهم حتَّى يحصلوا على

أعلى ثمن، وربما ينسخونها نسخةَ مقلّدةً متقنةَ، وسيستمرُّ الأمر بين بيع وشراء حتَّى تقعَ في يد ثريٍّ ما، فيكتشف بعد فوات الأوان أنَّها مسروقة، ويكون وقتئذ متحسِّراً على عشرات الملايين التي دفعها، ولكنَّه سرعان ما يغرق في صفقاتٍ أخرى تعوِّض ما خسره، لكن لنْ يعوِّضَ أحدٌ ما خسارته ابنته الوحيدة. حينما أعيته الحيلة لجأ إلى محسن طالباً منه العون، فلم يخيب أمله. اتصل محسن بأخيه في الكويت وطلب منه المبلغ وحالما وصله التحويل البنكي سلّمه بطيب خاطر لرؤوف. استلم المبلغ من محسن الرمَّال، ودفع من الفور قيمة تكاليف إجراء العملية الجراحية لابنته في صندوق المستشفى. أدخلوها إحدى غرف التنويم. بكلِّ بساطةٍ، هكذا هو المال دائماً يفتح الأبواب المغلقة. قالوا له إنَّه ربما عليه دفع دفعة أخرى من المال قبل إجراء العمليَّة الجراحيَّة، فليكن! اللَّوحة الثمينة ستكون بعد قليل في يده، وسيسلمها لمحسن، ويقبض بقيَّة المبلغ المتَّفق عليه. مشى بقدميه اللتين كانتا داخل حذاء من النوع الذي يمتص احتكاكه بالأرض ويستخدمه راقصو الباليه، فلا يصدر صوتاً. سار بثقةٍ على العشب المحيط بالممرّ المبلط بالرخامَ المؤدِّي إلى بوابة المتحف. سمع صوتَ خطواته الخفيفة على العشب الذي كان مشبعاً بطراوة الندى ما قبل الفجر. حالما اقترب من البوابة أخرج من جيب بنطلونه الأيمن قفازين لونهما أبيض. لبسهما على مهل. استخرج كومةَ

مفاتيح من جيبه الأيسر فيها أربعة مفاتيح. تلفّت يميناً ويساراً. كان رابط الجأش. أعدَّ لهذه اللحظة عِدَّتها منذُ أكثر من عشرة أيام. لصق مفاتيح الأبواب جميعها بعد أن غافل الحرَّاس وطبعها على عجينة بلاستسين ليّنة، ثمَّ نسخها عند مفاتيحيٍّ بارعٍ في روض الفرج. كان يعرفُ كل خطوة قبل الإقدام عليها. أدخل أحد المفاتيح داخل الفتحة المخصَّصة. أداره بخفَّةٍ، فانفتح الباب. دلف إلى الداخل. اصطدمت عيناه بالظلام الدامس في الداخل. يحاذر الاصطدام بتمثال "نداء السلاح" المصنوع من البرونز الذي يتوسَّط القاعة. استخرج من جيب بنطلونه الخلفيّ مصباحاً كهربائيّاً بحجم قلم الكتابة. تأكَّد من أنَّ الستائر مسدلة حتَّى لا يتسرَّب الضوء عبر زجاج النوافذ وأسفل فرجات الأبواب. أدار مفتاح تشغيل الكشَّاف، فتكوَّنت دائرة من الضوء على الأرضيَّة الرخاميَّة. أرسل الضوء إلى أحد الجدران، فرأى رجلاً وامرأةً يبتسمان بعذوبةٍ في وجههِ. ارتعشَ جسده قليلاً. كانت تلك صورة صاحب المتحف محمد محمود خليل وحرمه إميلين الفرنسيَّة: صورتهما الكبيرة المعلّقة في منتصف الجدار في الجهة المقابلة لباب الدخول الرئيس الواسع. أبعد الضوء عن الصورة. تقدَّم نحو السلَّم الأنيق الصاعد إلى الدور الثاني. صعد بخفَّةٍ حتَّى وصل نهاية السلَّم. أخيراً وصل الصالة الكبيرة التي تتوسَّط المكان. ترك الجدار الذي على اليمين، واتَّجه نحو الجدار الأوسط، وهناك في المنتصف

تماماً تسمَّر أمام اللّوحة التي كان يتوقّف أمامها الكثير من الزوَّار وهم مبهورون برؤيتها. تقدَّم منها. سلَّط عليها نور المصباح بعد أن اطمأنَّ إلى أنَّ الستائر كلَّها مسدلة في الصالة. اقترب منها، قفز من فوق الحبل القماشيِّ الأحمر المجدول والمحمول على أعمدةٍ نحاسيَّةٍ كانت تمنعُ الزوَّار من الاقتراب من اللَّوحة الثمينة. سحب من جيبه مشرطاً للورق. وضعَ الجزء الخلفيَّ من المصباح داخل فمه، وعضَّ عليه بأسنانه الأماميَّةِ. سلَّط الضوءَ الخافتَ قليلاً على اللَّوحة. أمسك بالطرف الأيسر من اللَّوحة بيده اليُسرى، وأمسك باليُمنى المشرط والمصباح الصغير في فمه. غرس رأس المشرط الحاد في الزاوية اليُمنى من اللَّوحة، وبخفَّةٍ، وعلى مسافة ثلاثة سنتيمترات من الإطار الخشبيِّ الثمين، قطع الجزءَ الأيمن للَّوحة من الأعلى إلى الأسفل. انتقل برأس المشرط من الضلعِ العلويِّ للَّوحةِ وقطعه بمهارة. كرَّر تلك العمليَّة حتَّى انتهَى من القطع من الجهات الأربع. ألقى نظرة سريعة على اللَّوحة. طواها طيَّتين متساويتي الأبعاد، ثمَّ دسَّها داخل الفانيلة الداخليَّة. ألصقها بصدره، وأسبل عليها القميصَ القطنيَّ الأسودَ بطول بطنه والصدر. شدَّ حزامَ البنطلونِ جيِّداً. شعرَ بقليلٍ من الرَّاحة لأنَّ كلَّ شيءٍ تمَّ بحرفيّة ومهارةٍ عالية. استدار ونزل من الدور الثاني إلى الأسفل بهدوءٍ. وصل إلى بوابةِ المتحف الضخمة. فتحهَا بحذر، ثمَّ أعاد إغلاقها من جديد برفق. انسلَّ عبر الحديقة

الملحقةِ بالمتحف. وصل السور إلى حيث المكان الذي قفز منه. تسلَّقه بخفَّةٍ، وحالما اعتلى السور، نظر يميناً ويساراً. كان الشارع يكاد يكون مقفراً من السيارات في مثل هذه الساعة المتأخرة، وبقفزةٍ واحدةٍ أصبح على الأرض. تحسَّسَ اللَّوحة. شدَّ ياقة الجاكيت الكاجوال من حول رقبته، ثمَّ سارَ بخطواتٍ متمهلة إلى الشارع البعيد والمضاء بأعمدة النور. توقَّف وقتاً لا بأس به حتَّى مرَّ بجانبه تاكسي. أوقفه. ركب في المقعد الخلفيِّ، وقال للسائق بصوت خفيض محاولاً إخفاء توتره:

- الكيت كات من فضلك.

(٣٠)

مكة المكرمة، فجر ٢٧/٨/٢٠٠٣

الخطوة الأولى كانت استرجاع المقعد الجلدي الذي فيه اللَّوحة والصورة من الجار العجوز بأسرع ما يمكن وبأقلِّ جهد ممكن، وبرباطة جأش، حتَّى لا ألفتَ الأنظار.

لكنْ كيفَ السبيل إلى ذلك؟

باختصار، أخبرتُ زوجتي عن سرِّ اللَّوحة. فهمتْ أشياء وغابتْ عنها أشياء من القصَّة. طرحتْ عليَّ أسئلةً قصيرة لكنَّها مهمَّة، أسئلة من نوع:

- هل اللَّوحة غاليةُ الثَّمن؟

- نعم.

- وما الذي جعل الناس يهملونها ويرمونها في الحراج؟

- لأنَّهم لا يعرفون قيمتها!

- وماذا ستفعل بها؟ هل ستبيعها؟

- نعم.

- وكم سيكون ثمنها؟

- ليس أقل من ثلاثين مليون ريال.

فتحتْ فمها من الدهشة. كانت عيناها مفتوحتين لأقصى درجة:

- ماذا قلت؟ ثلاثون مليون ريال؟

- نعم.
- هل تمزح؟
- لا.
- لماذا لمْ تخبرني بكلِّ هذا من قبل؟ ألستُ زوجتَكَ ورفيقةَ دربكَ في نهاية الأمر؟
- .....!
نهضتْ من فوق فراشها وتوجَّهتْ نحو المشجب المعلَّق عليه عباءتها ونقابها، لبستهما بسرعةٍ ثمَّ خرجتْ من حجرة النوم. تبعتُها مذهولاً وسألتُها مستغرباً:
- إلى أينَ أنتِ ذاهبةٌ في مثلِ هذا الوقتِ؟
- إلى بيت جارتنا.
- وماذا تريدين منهم؟
- سأسترجعُ الأثاث الذي وهبتهم إيَّاه!
تذكَّرتُ الصورة، صورة زوجة فيصل المخبَّأة مع اللَّوحة، فصحتُ بها مذعوراً:
- خطأ، ما ستفعلينه خطأ.
- خطأ؟ ولماذا هو خطأ؟
- هل تعتقدين أنَّهم لن يشكُّوا في أمرنا؟ ولماذا نريد أن نسترجع الأثاث القديم بمثل هذه اللهفة، وفي مثل هذا الوقت، وبمثل هذه الطريقة الفجَّة؟
- وماذا سنفعل؟
- سنسترجعه بالحيلة وفي الوقت المناسب وبالطريقة

المناسبة.

- كيف؟

عند هذا السؤال لمْ أحر جواباً. كنتُ في حيرةٍ من أمري. ماذا سأفعل؟ قرَّرتُ الاستعانة بفيصل، فهو بكلِّ تأكيدٍ سيعالج الوضع المتأزِّم الذي أعاني منه ببرود أعصابه المعروف عنه. لكنْ، هل من المفيد أنْ أستعينَ بفيصل في مثل الإشكال؟ فهو ليس من أهل المكان أو الحارة التي أسكن فيها، ووجوده سيزيد الأمر تعقيداً. وقرَّرتُ أنْ أدبر الأمر بطريقتي الخاصَّة، ولا مانع من الاستعانة بزوجتي إذا كان وجودها مطلوباً. أول خطوة فكَّرتُ فيها هي زيارة إلى جارنا العجوز، هذه الزيارة لو تمَّت، فستكون أوَّل زيارة مني له في مسكنه. وربما أثارت زيارتي الشك لديه. لا، لن أذهب لزيارته. الرأي الصائب أنني سأدعوه وزوجته لتناول طعام العشاء عندنا، ثمَّ أستغلّ الفرصة لأنسحب من البيت وأذهب إلى شقَّتهما وأحصل على كنزي دون أن أثير الغبار فيما حولي.

أدعوه للعشاء!

وهلْ سأصبرُ حتَّى حلول الظلام؟ لا، سأدعوه لتناول طعام الغداء، هكذا أفضل، وخلال هذا الوقت سأراقبُ بيته من النافذة التي تشرف على الشارع أو أتحجَّج بغسيل سيَّارتي الواقفة أمام باب شقَّته في الأسفل، أو أمشي برفقته إلى المسجد القريب لأداء الصلوات التي كنتُ من النادر أنْ

أؤدِّيها في المسجد باستثناء الجمعة.

ماذا سأفعل؟

قرَّرتُ عمل زيارة استكشافيَّةٍ سريعةٍ لبيته أثناء صلاة الفجر. سأطمئن إلى وجود المقعد الجلدي في بيته أثناء ذهابه إلى الصلاة. لكن ماذا سأفعل بزوجته التي ستكون حتماً داخل البيت أثناء غيابه عن المنزل؟

فكَّرتُ في زوجتي، هل سأستعين بها وأطلب منها استخراج الكنز من داخل المقعد الجلدي بعد أن أشرح لها مكانها بالضبط؟

لا وألف لا، هجستُ لنفسي عندما تذكَّرتُ وجود صورة زوجة فيصل التي سرقتُها من ألبوم صوره مع اللَّوحة داخل المقعد. ستكون هذه كارثة أخرى أنا في غنى عنها في هذا الوقت. هناك دائماً أشياء تكون حاضرة وموجودة في المكان الخطأ والزمن الخطأ.

يا الله! ماذا سأفعل؟ لو لم تكن الصورة مخبَّأةً مع اللَّوحة، لهان الأمرُ، ولتمكَّنتْ زوجتي من إنهاء الإشكال برمَّته في دقائق قليلة، ولاسيَّما أنَّ زوجة جاري المُسن تعاني الصمم وضعف النظر الشديد.

(٣١)

مكة المكرمة، فجر ٢٧/٨/٢٠٠٣

رافقتُ جاري العجوز للذهاب إلى صلاة الفجر. تواريتُ خلف عتمة الباب الخارجيِّ للبناية منتظراً ظهوره، وحالما رأيته مغادراً بيته، خرجتُ من مكمني. كان ممسكاً عكازه يحوقلُ، ويبسملُ، ويستعيذُ بالله من الشيطان الرجيم. ألقيت عليه التحيَّة محاولاً التظاهر بأنَّ لقائي كان محض مصادفة. ردَّ تحيتي، ولم تغب عني نبرة الاستغراب في صوته، فهو لم يكن يراني ذاهباً أو قادماً من مسجد الحي إلاّ فيما ندر، كالمواسم الدينية، أو حضور صلوات بعض الجنائز للذين انتقلوا إلى رحمة الله ممن أعرفهم من سكان الحي وتربطني معهم صلات وثيقة. تجاهلت هذا الأمر ثم مشيّنا معاً نحو مسجد الراية. اجتزتُ به الشارع الذي كان شبه خالٍ من السيَّارات في مثل هذا الوقت. أمسكتُ يده أثناء مرورنا ببعض مخلَّفات بناءِ عمارة سكنيَّةٍ من أخشاب، ورمل، وأسياخ حديد لكي لا يتعثَّر ويسقط. دعا لي بخير. يبدو أنَّ الرجل سُرَّ منِّي. هذه خطوة موفَّقة. سأدعوه لتناول طعام الغداء، هو وزوجته، في بيتي. سأعرضُ عليه دعوتي أثناء عودتنا من صلاة الفجر.

عند الخروج من الباب، بعد صلاة الفجر، رأيتُه في عتمة

مدخل المسجد يبحث عن حذائه، ساعدته في إيجاده، ثمَّ تناولتُ يده في طريق العودة إلى البناية. ابتسمَ في وجهي وقد بدا الامتنان عليه. اهتبلتُ الفرصة وقلت له بصوت حاولتُ إخفاء رنَّة الاستعطاف فيه ليكون طبيعيّاً:

ـ أنت مدعوٌّ عندي اليوم مع زوجتك لنتناول طعام الغداء معاً.

سكت ولم يرد. بدا كأنَّه يقيسُ مدى جدّيتي في دعوتي له. لم يسبق أن تناولنا أيَّ وجبة معاً ولو كأساً من الشاي أو القهوة منذُ سكنَّا هذه البناية من سنوات لم أعد أستطيع حصرها. وشملنا صمت ثقيل، فأنا طرحتُ دعوتي عليه، ولبثت منتظراً جوابه، فإذا كان رفضاً، فسأصرُّ على دعوتي، ولكن بطريقة تبعد شكوكه عنِّي، وإذا قبِل، فهذا ما أطمحُ إليه. وكالعادة، مثلما يدعوك شخصٌ ما تعرفه تمام المعرفة للتَّناول من طعامه، فإنَّه إذا كان راغباً في تلبية الدعوة، يرفض بأسلوب ليِّن نوعاً ما، ويغلِّف عبارته بكلماتٍ من نوع: "ما نريد نثقل عليك، أو أنتَ رجلٌ كريمٌ ولكن دعهَا في وقتٍ مناسبٍ"، وشيء من هذا القبيل.

قلتُ له جازماً:

– يسرُّني دعوتكَ يا عم، فنحنُ جيران منذُ زمنٍ طويلٍ ولم يسبق لنا الجلوس معاً على طعام، أو حتَّى لمجرَّد الحديث.

حاولتُ أنْ أعصرَ ذاكرتي مسترجعاً حديثاً للرسول – صلَّى الله عليه وسلم – درسناه في المرحلة الابتدائيَّة يحثُّ فيه

على حقوق الجارِ ولكنّني فشلتُ في تذكّره، ففضّلتُ السكوت.
تذكّرتُ كنزي الموجود في بيته، فشعرت بشيءٍ يلسعُ أعماقي و...
وخطرت لي فكرةٌ!
قلتُ له محاولاً إخفاء تهدُّج صوتِي:
- إنَّني في غاية الخجل منكَ عمّي العزيز.
لم يتفوه بحرفٍ، لكنه توقف عن المشي وكنا قد وصلنا البناية التي لا تزال تحت الإنشاء. لبثَ ساكناً ينظرُ نحوي هازّاً رأسه مستفسراً وهو يعبث بأصابعه في لحيته المصبوغة بالحناء. آثرت الصمت لكي أضفي مزيداً من الإثارة على حديثي. ثمَّ مشينا معاً وظلام الفجر بدأ الانقشاع، فقلتُ له:
- الأثاث الذي أهدته لكم زوجتي لا يليق بمقامكم عمّي العزيز.
أبطأ سيره حتَّى كاد يتوقَّف. كنتُ ممسكاً بيده اليمنى وبيده اليسرى عكازه الذي يطرق به الأرض مع كل خطوة. نظرَ نحوي مستفسراً، فعاجلته بالقولِ:
- لأنَّني أريدُ تقديم عذري لكَ، قرَّرتُ أن أشتري لكما أثاثاً جديداً بدل القديم.
توقَّف الكلامُ في حنجرتِي، فلم أقدر أنْ أُضيفَ كلمةً واحدةً!
وفكَّرتُ: من أين لي نقودٌ لأشتريَ له أثاثاً بديلاً؟ شعرتُ أنَّني قد تسرَّعتُ في عرضي!

كنتُ بانتظار كلمته الفصل. أريدُ أن أنهي هذا المأزق بأسرع ما يمكن، وقبل غروب شمس اليوم. لا بدَّ أنْ أستعيد كنزي قبل فوات الأوان. سكتُّ بانتظارِ أيِّ كلمة منه. طال صمتُه وازداد وجيب قلبي. تنحنحَ ثمَّ قال بهدوءٍ قاتلٍ:

- جزاكَ اللهُ خيراً يا ولدي. لا تتعب نفسك.

فرحتُ بجوابهِ الذي كان مبهماً لكنه كان أقرب إلى القبول، يحتاج فقط مني قليلاً من الإلحاح ليتمّ تأكيد قبول الدعوة، فقلتُ له ممتناً:

- لا تقلْ ذلكَ يا عم، إنَّني في خدمتك دوماً.

اقتربنا من البناية وشعرت بالذُّعر لأنَّني لمْ أسمع جوابه الأكيد في قبول دعوتي له للغداء. توقفنا تماماً بجانب باب بيته، ولكي أحسمَ الأمر قلتُ له:

- سأكونُ بانتظارك اليوم بعد صلاة الظهر. سنصلِّي معاً في المسجد ونعود معاً إلى بيتي مباشرةً.

- بإذن الله.

بإذن الله، يعني أنَّه قبلَ دعوتي. شعرتُ بفرح غامر، وهدأت نفسي قليلاً من التوتر. طرق الباب بعكازه طرقاتٍ قويَّةً أصدرت صوتاً كافياً لإيقاظ سكَّان الحي بكامله. وبرَّر فعله ذاك لينبّه زوجته التي تعاني صمماً ثقيلاً بجانب ضعف نظرها الشديد. تمهَّلتُ قليلاً قبل المغادرة بحجَّة أنَّني أريد الاطمئنان إلى دخوله المنزل، بينما كان غرضي أنْ أحظى لو بلمحة سريعة لرؤية الكرسي المكسو بالجلد الرخيص الذي

يحوي كنزي لتهدأ ظنوني وشكوكي. التفتَ نحوي مبتسماً، وقال لي:

ـ انصرف يا ولدي، ولا تتعب نفسك بالانتظار، أنا متعوِّد فعل هذا كلَّما عدتُ إلى البيت، ستفتح لي الباب في نهاية الأمر.

كدتُ أقول له: لا، بل سأنتظر بجانبك حتَّى تفتحَ لكَ زوجتك الباب، ولكنَّني رأيتُ أن مثل هذا التصرُّف ربما سيثير شكوكه، أو غضبه، خصوصاً أنَّ اهتمامي به قد جاء على نحو مباشر، فنحن غالباً كنَّا نكتفي بإلقاء التحيَّة على بعضنا بعضاً، ثمَّ يذهب كلٌّ منّا في طريقه. غادرتُ المكان بتباطؤ وعلى مضض بينما قرعه على الباب في غبشة الفجر يتردد صداه في الحي بكامله. قفزتُ درجات السلَّم المؤدِّي إلى شقَّتي درجتين درجتين قفزاً. فتحتُ البابَ ووجدتُ زوجتي بانتظاري متلهِّفةً، قلتُ لها:

ـ أعدِّي طعامَ الغداء اليوم باكراً، فلدينا ضيوفٌ سيتناولون معنا الغداء.

ولم أدعهَا تسأل سؤالاً واحداً عن هؤلاء الضيوف، بل قلتُ لها:

ـ ضيوفنا جارنا العجوز أبو فياض وزوجته.

(٣٢)

القاهرة، فجر ٤/٦/١٩٧٧

حالما نزل من التَّاكسي في شارع مراد، في الكيت كات، سمعَ صوتَ أذان الفجر طريَّاً ناعماً قادماً من مآذن جامع خالد بن الوليد محطَّماً سكون الحي الناعس. لفح وجهه نسيم الصباح الموشك على الانبلاج رغم القيظ الذي يبدأ عادةً في يونيو معلناً بداية الصيف الساخن المعتاد في القاهرة. هناكَ في الشقَّة وجد محسن الرمَّال بانتظاره. وجوده في هذا الزمن بالذات كان متوقَّعاً لأنَّه أخبره بالموعد الذي سيسرق فيه اللَّوحة. اختار الوقت الملائم لتنفيذ العمليَّة. سيكون ذلك ما بين الثالثة، والثالثة والنصف صباحاً. أنهى عمليَّة السرقة في زمن قياسي: عشرون دقيقة فقط. وجد محسن الرمَّال متوتراً وفي أقصى درجات التَّرقب. قبل وصوله الشقّة، كان محسن يقلّب بين يديه مبلغاً مالياً قدره خمسة آلاف جنيه استلمها منذ يومين بحوالة مصرفيَّة من أخيه صلاح طلبها منه بحجّة عمل بعض الاصلاحات في شقَّة والدتهم وشراء أثاث جديد استعداداً لموسم عيد الفطر الذي سيحلُّ بعد ثلاثة شهور أو أقل. كان هذا المبلغ هو الدفعة الثانية من المتفق عليه بينه وبين رؤوف. خطا نحو حجرة النوم. فتح دُرجاً من أدراج طاولة موضوعة بجانب السرير ورمى داخله المبلغ.

أقفل الدُرج ثم عاد إلى الصالة والقلق بادٍ على وجهه. كانت عيناه حمراوين بسبب الإجهاد، والكيف، والسهر، والتفكير المتواصل، والقلق. كان قد تقدّم بطلب إجازة لمدة أسبوع متعذراً بوعكة صحّية ألمّت بأمُّه. منحوه إجازة لمدة أسبوع كما طلب. كان يريد من هذه الأيام التي انقضت منها ثلاثة أن يختلي بنفسه ليمعن التفكير في إتمام عملية السرقة بكل سهولة، وليبعد قليلاً الشبهات نحوه في حال بدأت الشرطة التحقيق في ملابسات عملية السرقة. سمع طرقاً خافتاً على الباب وحالما فتحه قال له متلهفاً:

ـ ماذا فعلت؟

لم يجبه رؤوف. سار نحو الصالة العابقة برائحة الدخان والرطوبة. ارتمى على أوَّل مقعد، ثمَّ قال بنبرة لا تكاد تُسمع:

ـ سيجارة، أريدُ سيجارة!

لبث محسن واقفاً كأنَّه لم يسمع شيئاً ممَّا قال.

صاح في وجهه:

ـ ألم تسمعني؟ أريدُ سيجارة!

انتبه محسن كأنَّ عقرباً لسعته. أدخل يده في جيبه ثمَّ تناول علبة دخان كليوباترا. فتح العلبة، وتناول منها سيجارة. مدَّها إليه وهو لا يزال مسدِّداً بصره في وجهه مباشرة. أخرج من جيب بنطلونه الثاني ولاَّعة سجائر.

تناول رؤوف منه السيجارة ووضعها في طرف فمه الأيمن. اقترب منه شاعلاً الولّاعة فتوّهجت مقدمة السيجارة.

امتصَّ منها نَفَساً، ثمَّ أرسل الدخان فوق رأسه. أشار على محسن بالجلوس، فجلس على مضضٍ. أغمض عينيه. كانت تلك الثواني تعذيباً لمحسن الرمَّال اكتفى فيها بالحملقة في رؤوف منتظراً منه كلاماً حول ما اتَّفقا عليه وأعدَّا عدته منذُ أكثر من شهر.

حينما قاربت السيجارة منتصفها، نطق أخيراً:

- اللَّوحة عندي.

تنبَّهتْ كلُّ حواس محسن، فقفزَ من فوق المقعد مثل نمرٍ سائلاً إيَّاه:

- أين هي؟

- .....!

- يكفي كلّ هذا العبث يا رؤوف. أين اللَّوحة؟

ابتسم، ثمَّ نهض على قدميه، رفع قميصه الأسود، واستخرج اللَّوحة التي كانت ملتصقةً ببطنه. تناولها، ثمَّ فردها أمام بصر محسن الذي كان يراقب كلّ حركاته دون أن يرمشَ له جفنٌ. رفعها أمام الضوء ثمَّ قال بلهجةٍ مسرحيَّةٍ:

- ها هي اللَّوحة يا سيدي!

تناولها منه محسن وطفق ينظر لها أسفل لمبة النيون التي كانت معلَّقة في السقف. لبث زمناً لا بأسَ به يتطلَّع في اللَّوحة. التفتَ نحوَ رؤوف وقال له بصوت متهدِّج:

– براااافو عليييك!

وضع اللَّوحة على الطاولة القريبة ثمَّ انحنى بقامته إلى

الأسفل. مدَّ يده تحت أحد كراسي الجلوس. سحب حقيبة جلديَّة من النوع الذي له حزام طويل يلتف حول الرقبة متقاطعاً مع الصدر لتكون الشنطة في الجانب الأيسر، أو الأيمن. وضع اللَّوحة بعناية داخل الحقيبة الجلديَّة ووضعها بجانبه. تبادلا الحديث لمدة طويلة، ثمَّ استغرقَا في النوم. كلّ واحدٍ نامَ على الكنبة التي كان جالساً عليها. انتبها معاً في وقتٍ واحدٍ. كانت أشعة الشمس تنير وسط الشقَّة من جانبها الشرقيّ من نافذة مفتوحة. نهض محسن الرمَّال وأعدَّ كوبين من الشاي الثقيل. جلسا في الصالة يشربان الشاي وقد غرق كلٌّ واحدٍ منهما في تفكيرٍ عميقٍ. عند حلول الثامنة صباحاً، نهض محسن من مقعده. تناول الحقيبة الجلديَّة. لبسها وتدلَّت من جانبه الأيمن، ثمَّ أخذ طريقه نحو باب الشقَّة مغادراً. قبل أن يصل إلى الباب التفتَ نحوَ رؤوف وقال له:

- داخل دُرج الطاولة التي في غرفة النوم مبلغٌ من المال. خمسة آلاف جنيه. خذه، فهو الدفعة الثانية من المتفق عليه.

تمهّل رويداً قبل أن يكمل كلامه:

- وسيُخصم المبلغ الأول والثاني من نصيبك من بيع اللوحة.

لم يجبه رؤوف، بل لبث ينظر إليه ساكتاً، فقال محسن:

- وبقيَّة حقك من بيع اللَّوحة محفوظ، في حال بيعها ستحصل على المبلغ المتَّفق عليه: أربعون ألف جنيه.

قال ذلك، ثمَّ فتح باب البيت، وغادر المكان. نزل إلى

الشارع الذي زاد ضجيجه وصخبه. استقل سيَّارة تاكسي، وطلب منه الذهاب إلى جامعة حلوان كليَّة التربية الفنيَّة.

نهض رؤوف ببطء وهو لا يزال يشعر بسلطان النوم القاهر يسيطر عليه. ذهب إلى غرفة النوم. مدَّ يده وسحب دُرج الطاولة القريبة من السرير. وجد ربطة من المال من فئة المئة جنيه. عدَّها فوجدها خمسة آلاف جنيه. أعاد المبلغ إلى الداخل. أطفأ نور لمبة السقف المتشقِّق بفعل الرطوبة، فغرقت الحجرة في الظلام. ردَّ جسده على السرير، وسرعان ما غطَّ في نوم عميق.

(٣٣)

كان لا بد أن يتحرّك بأسرع ما يمكن. يدرك تماماً أن الشرطة سوف تُلقي القبض عليهم جميعاً بعد أن تُكتشف سرقة اللوحة من المتحف. سيمر زمن قصير فقط قبل أن تتسع الدائرة لتشمل كل العاملين في المتحف. وكونه غائباً عن العمل بسبب الإجازة التي طلبها لن يجعله هذا بعيداً عن دائرة الشك. عقد العزم أن يفعل أهم خطوة قبل أن يساق إلى التحقيق ثم... ربما إلى السجن. ركب سيارة أجرة وطلب منه إيصاله إلى كليّة التربية الفنيّة في حلوان.

حالما وصل إلى هناك، انطلقَ فوراً نحو كافتيريا الكليَّة. رآه عمران من بعيد. أشار إليه بيده ملوِّحاً ومبتسماً. تقدَّم محسن نحوه وهو يشدُّ على كتفه الحقيبة الجلديَّة. تصافحا، وأشار له إلى الكرسي المقابل ليجلس، سأله: ماذا يريدُ أن يشرب؟ رفض محسن الجلوس والدعوة، بل قال له آمراً:

- هيَّا بنا!

- إلى أين؟

- إلى البيت...

- والمحاضرات؟

- دعك منها، يمكنك إدراك ما فاتك منها من أحد زملائك.

تناول عمران كيساً بلاستيكيّاً فيه أدواته من فُرَش رسم

ولفائف من قماش الكانفاس وزيوت خلط الألوان وأنابيب ألوان الزيت والباليته الخشبيَّة التي يمزج فوقها الألوان. وانطلقا معاً نحو البيت.

لا يستطيع عمران رفض أيّ طلب لمحسن. يردِّد دائماً للكبير والصغير أنَّ أفضاله عليه كثيرة ولا تُحصى. يكفي أنَّه يساعده في مصاريف دراسته وإقامته. هما أولاد خال في نهاية الأمر. جاء من المنيا ليدرس في قسم التربية الفنيَّة. كان يمتلك موهبةً هائلةً في الرَّسم شفعتْ له في القبول في الكليَّة، وكان من الطلاب الذين يُشار إليهن بالبَنان في القسم. عندما يطَّلع محسن بالمصادفة على إحدى لوحاته التي يرسم فيها بورتريهات لوجوهٍ في تعبيرات إنسانيَّة مختلفة، ومناظر طبيعيَّة، وحروفيَّات، وزخارف، وغيرها، ينبهر بها، فيفغر فاه من الدهشة، ويسأله بين مصدِّقٍ، ومكذِّبٍ:

ـ أنتَ رسمتَ هذا؟

يهزُّ رأسه موافقاً. يعجبه دائماً إطراء محسن له. يجده مديحاً غيرَ متكلَّف بل نابعاً من القلب. وكثيراً ما كان يفاجئه محسن بإهدائه ألواناً وفُرَشاً من النوع الذي يستخدمه المحترفون في الرَّسم. يفرح بها ويبدأ الرَّسم من الفور. كان يجد تلك الأدوات التي يستخدمها كبار الرسَّامين تساعده على الإبداع وعلى التفرُّد في إخراج لوحات لا يفرِّق الإنسان بينها وبين لقطات كاميرا التصوير الضوئي. ولا ينسى بالطبع تلك الجولات في متحف محمد محمود خليل بدعوة من محسن

معفيّاً إياه من دفع ثمن التذكرة، فكان يمكث وقتاً طويلاً في المتحف يتأمل لوحاته ومقتنياته دون أن يصيبه الملل والتعب.

لم يركبا الحافلة بل أخذا سيَّارة أجرة ليكونا وحدهما. انطلقت بهما نحو البيت العائليّ في حيّ الجماليَّة الشعبيِّ. هذه الشقَّة القديمة التي تركها أخوه الكبير له ولأمه واشترى شقَّة أكبر وأوسع في مدينه نصر. كان أخوه بارّاً بأمِّه. وحالما يعود من الكويت كان يزورها ويأتي محمَّلاً بالهدايا الثمينة لها. يطلب رضاها كلَّما سنحت له الفرصة. عرضَ عليها الانتقال معه إلى شقَّته الكبيرة في مدينة نصر لكنَّها رفضتْ رفضاً قاطعاً، وقالت له إنَّها لا تريدُ أن تتركَ محسن بمفرده. محسن ابنها المفضَّل لها رغم غموض اتِّجاهاته في الحياة وضبابيَّة مستقبله. رضخ لرغبتها ووهبها الشقَّة لها ولأخيه. لم يبخل عليهما بالمال فكان يرسل الكثير من المال في حال طلبهم ذلك منه. سارا صامتين طوال الطريق، وعبرا الزقاق الذي يفصل ما بين شارع المُعز لدين الله والبيت. وصلا أخيراً. فتحت لهما والدته الباب، فألقى عليها التحيَّة، هو وعمران، ثمَّ سارا إلى غرفة محسن الخاصَّة. حالما وصلا أقفل محسن الباب بالمفتاح، ووضع الحقيبة الجلديَّة على السرير. كان يراقبه بصمتٍ. استخرج محسن اللَّوحة من الحقيبة. فردهَا أمام بصره صامتاً. تمعَّن عمران في اللَّوحة بعينيه وهو لا يعرف ماذا يقول! يكاد يكون يعرف

هذه اللّوحة، ربما سبق أن رآها في مكانٍ ما. شملهما الصمتُ قبل أن يقطعه محسن بالقول بصوت يكادُ يكونُ همساً:

ـ أنصتْ إلي جيِّداً. أريدُ من هذه اللَّوحة نسخةً طبق الأصل.

ـ .....!

ـ لا بد أن تبدأ العمل فوراً. لديك أسبوعٌ واحدٌ لإنجاز اللَّوحة.

حاول أن يشاكسه في الكلامِ فقال:

ـ أسبوعٌ لن يكون كافياً. لا بد أن أعمل لها بروفات كثيرة قبل البدء في الشروع النهائي لرسمها، ثم هناك المحاضراتُ، والكليَّة، و...!

ـ فلتذهب المحاضرات، والكليَّة إلى الجحيم!

فوجئ من نبرة صوته الآمرة الصَّارمة، فلزم الصمت.

تناول محسن سيجارةً أشعلها. نفثَ دخانها بقوّة، ثمَّ قال له:

ـ لن تبرح هذه الحجرة حتَّى تنجزَ ما طلبتُه منك. وسأسعى إلى استخراج إجازة مرضيَّة لك ليكون غيابك عن الكليَّة بعذرٍ.

لم يتفوه بحرفٍ. نهض محسن، ثمَّ مشى نحو إحدى الطاولات، أخرج من الدرج قلماً وورقةً. اقترب منه، ثمَّ قال له:

ـ اكتب ما ينقصك من أدوات في هذه الورقة وسأذهب الآن

إلى كُبرَى مكتبات القاهرة وأحضرها لكَ حالاً.
تناول عمران الورقة والقلم، وسجَّل ما ينقصه فُرَش، وحامل لوحات خشبي، وبالته خشبيَّة، وثلاثين أنبوباً من الألوان الزيتيَّة من النوع الجيِّد، وعلبة من زيت بذر الكتَّان، وأخرى من الورنيش اللمَّاع، وأصابع من الفحم، وأقلام رصاص من النوع الخفيف "اتش بي"، ومترين من قماش الكانفاس الخشن، وإطاراً خشبياً ومطرقة ومسامير صغيرة الحجم لتثبيت قماش الكانفاس على البرواز.
سلَّمه الورقة. تناولها منه. ألقى عليها نظرة سريعةً ثمَّ خرج من الحجرة ليحضر ما هو مكتوب فيها له. أوصاه بألا يخرج حتَّى يرجع إليه مرَّة أخرى.
خرج محسن من الحجرة. تلفَّت عمران حوله، فرأى اللَّوحة ملقاةً على طرف السرير. أمسك بها بيده. تأمَّلها قليلاً ثمَّ قال مشدوهاً:
- لوحة "أزهار الخشخاش" لفان غوخ. أليست هذه اللَّوحة موجودة هنا، في القاهرة، في متحف ... وتذكَّر أنَّه سبق له أن رأى هذه اللَّوحة عندما كان يشترك في الجولات الفنيَّة التي ينفذها القسم في متاحف القاهرة. وتلك الزيارات التي كان يجريها بنفسه تحت سمع وبصر محسن إلى المتحف.
همسَ لنفسه:
– أيعقلُ هذَا؟

جلس على طرف السرير، واستغرقَ في مطالعة اللّوحة بانبهارٍ مخلوطٍ بالتَّوتر الشديد.

حينما عاد محسن وبيده كل ما طلبه عمران ليرسم اللوحة، قال له إنه سوف يغيب عنه أسابيع قليلة وربما امتد غيابه شهراً أو أكثر. طلب منه ألا يخرج من البيت مهما كانت الظروف والأسباب ريثما يعود. هزّ عمران رأسه موافقاً وما هي إلا سويعات قليلة حتى سمعا طرقاً قوياً على الباب، وحينما فتح محسن الباب وجد رجالاً من الشرطة. طلبوا منه بغلظة مرافقتهم إلى مركز شرطة الدقي وسط تجمّع جيرانه وسكان الحارة الذين لفت نظرهم صوت صفارة سيارة الشرطة ووقوفها أمام مدخل العمارة في الحي الشعبي الضيق الشوارع والمكتظ بالسكان. قيدوا يديه خلف ظهره. اقتادوه وهو يتصّنع الذهول وصرخات وبكاء أمه تمزق فضاء المكان.

(٣٤)

مكة المكرمة، فجر ٢٧/٨/٢٠٠٣

سبقته بالذهاب إلى جامع الراية حالما صدح المؤذن معلناً صلاة الظهر. لمْ أشأ أن أنتظره عند باب بيته كما حدث اليوم في صلاة الفجر حتَّى لا يشكَّ في الأمر ويشعر كأنَّني أترصَّد خروجه. انقضت الصلاة التي أديتها بطريقة مرتبكة فقد كنت أقوم والمصلين جالسين، وأقعد وهم واقفون. حالما خرجت من باب الجامع درتُ ببصري باحثاً عنه لكنَّ عيني لم تقع عليه. أين ذهب جاري العجوز؟ تباطأتُ في الخروج لكي أتأكَّد أكثر من أنه ليس موجوداً في المسجد. بدأتْ الشكوكُ والظنون تعبث بي. خرجتُ من المسجد وانتظرت خروجه متظاهراً برغبتي في الشراء من بائع ساعات ومحافظ جلديّة يمني الجنسية يبيعها للمصلِّين بعد انقضاء الصلاة. كنتُ في كلِّ مرَّة ألتفتُ إلى باب الخروج للمسجد حتَّى غادره آخرُ مصلٍّ. شعرتُ بخيبة الأمل ولمتُ نفسي لأنَّني تركته يغيب عن بصري. انطلقتُ سريعاً إلى البيت. اقتربتُ من البناية ومن بيت جاري أبي فياض. أصختُ السمعَ عندما اقتربتُ من باب منزله. لم أسمع شيئاً. طرقتُ الباب فلم يردْ عليَّ أحدٌ. طرقتُ الباب بقوَّة فلم أحظَ بجوابٍ. تناولتُ حجراً من الأرض، وطرقت به الباب بقوَّة، وقد تفصَّد عرقُ جبهتي.

صحتُ بأعلى صوتي منادياً عليه، فلم يردْ عليَّ أحدٌ. بدأتْ أعصابي بالتفلُّت. جاءني صوتٌ من الخلف. رأيتُ عامل البقالة الهنديّ الجنسيَّة الذي اشتري منه لوازم البيت يطلُّ من باب دكانه، شعرتُ بالحرج لكوني بدأتُ مثل رجل فقد عقله، فقال لي:

ـ لقد ذهبَ إلى المستشفى؟

صحتُ بأعلى صوتي:

ـ مستشفى؟ ما الذي حدث؟ وأيّ مستشفى ذهب إليه؟

أخبرني الهنديُّ بالتفاصيل الغائبة عنّي. فقال إنَّه أثناء ذهاب أبي فياض إلى المسجد لأداء صلاة الظهر سقط مغشيّاً عليه على الأرض وسط الشارع. لمحه رجل قادم بسيَّارته. أوقفها وترجَّل منها ثمَّ حمله وذهب به إلى أحد المستشفيات بعد أن أخبر الهندي صاحب البقالة الذي كان واقفاً وقتها يراقب ما يحدث قائلاً له أخبر أقرباءه أنني سوف أوصله إلى أقرب مستشفى في الحي.

غادر الهنديُّ عامل البقالة وبقيت واقفاً مكاني معطَّل التفكير ومسلوبَ الإرادة. لقد باءت كلُّ خططي بالفشل. تذكَّرتُ زوجته، فطرقتُ البابَ مرَّة أخرى، ولا مجيب! تلفتُّ يميناً ويساراً، وحاولتُ فتح الباب عنوةً، ولكنَّه كانَ موصداً.

يا لهذا النهار!

صعدتُ إلى شقَّتي متذمِّراً غاضباً، وهناك كانت المفاجأة الأخرى بانتظاري. كانت زوجة جاري العجوز جالسةً عند

زوجتي. رأيتُ ملامح وجهها المتغضِّنة، ونظارتها الطبيَّة الكبيرة، ذات الزجاج العريض، وشعرها الأشيب، وشعرت بنوعٍ من الارتياح.

سألتُها بلهفةٍ عن زوجها، فحملقت في وجهي مدة ولم ترد. سألتُها مرَّة أخرى لكنَّها لم ترْدْ أيضاً. شعرتُ بغضبٍ هائلٍ يجتاحني، ولكن هدأت نفسي عندما قالت لي زوجتي إنها لم تعدْ تسمع إلّا بصعوبة. سألتُ زوجتي: كيف جاءتْ إلى هنا؟ فقالت لي إنَّها سمعت طرقاً واهياً على الباب، وعندما فتحت الباب فوجئت بها جاثية على ركبتيها وهي تبكي وتلهث. يبدو أنَّها استغرقتْ وقتاً وجهداً في صعود السلم. وبصعوبةٍ عرفتُ منها ما حدث لزوجها. قلتُ لها برجاء: "اسأليها هل تعرفُ إلى أيِّ مستشفى ذهب زوجُها". حاولت زوجتي أن تستجوبها، لكنَّها لم تجبنا إلّا بالبكاء والتحسُّر على زوجها الذي سقطَ في طرف الشارع القريب جدّاً من البيت. طلبتُ من زوجتي أن تخبرنا كيف عرفت أنَّه سقط في الشارع، وبعد محاولات مضنية منِّي ومن زوجتي، عرفنا منها أنَّها ودَّعت زوجها لدى الباب لأداء صلاة الظهر، واكتشفت أنَّه لم يأخذ مفتاح البيت معه. أمسكت بيدها المفتاح ثمَّ عادت أدراجها لتعطيه إيّاه، وحالما فتحت الباب رأته يبلغ الشارع. نادتْ عليه ليعودَ لأخذ مفتاح البيت، فسمعها وعاد أدراجه، فتناوله منها وسار في طريقه إلى المسجد مرَّة أخرى، ولم يكدْ يسير خطواتٍ بسيطةً حتَّى رأته يسقط على طرف

الشارع مصدراً آهةٍ متصلة، فملأت الدنيا صراخاً وبكاءً. استزدنا منها أيّ تفاصيل ولكنَّها قالت إنَّها لم تعد ترى، أو تسمع شيئاً، ولجأت إلينا لنساعدها في استرجاع زوجها. طلبتُ من زوجتي أن تخبرنا هل يعاني زوجها أيِّ مشكلات صحيَّة، وبصعوبةٍ عرفنا منها أنَّه مصابٌ بالسُكَّر والضغط، وكثيراً ما تصيبه نوبات الإغماء في حال ارتفاع السُّكر أو انخفاضه.

نوبةُ سُكَّر!

ماذا يعني هذا؟

سألتُ نفسي...

لم أعد أستطيع التفكير، فقرَّرتُ الاتِّصال بفيصل ليساعدني في البحث عن جاري المُسن، ولكنَّني تراجعتُ عن هذه الخطوة؛ ليس من اللائق أنْ أستعينَ بفيصل الغريب عن المكان والناس في كلِّ شاردةٍ وواردةٍ. سيجعلني هذا في نظره مثلَ رجلٍ لا يُحسن التصرُّف في أيِّ أمر. وقرَّرتُ أنْ أبحثَ بنفسي في المستشفيات القريبة من الحيِّ الحكوميَّة والخاصَّة. خرجتُ من البيت، وركبتُ سيَّارتي، واتَّجهتُ كالمجنون أبحثُ عن جاري العجوز في هذه الظهيرة التي بدأ حَرُّها وسمومها نتصاعد.

(٣٥)

وصلتُ إلى المركز الصحيِّ الحكوميِّ الخاصِّ بالحيِّ الذي أسكن فيه. سألتُ بلهفةٍ عنه في قسم الطوارئ. أدليتُ لهم بأوصافه، ولكنَّهم أكَّدوا لي أنه لم يأتِ أيُّ رجلٍ مسنٍّ إلى هنا هذا اليوم. خرجتُ من المركز الصحي وقرَّرتُ التوجُّه إلى المستشفيات الخاصَّة. وصلتُ مستشفى "الأمل" القريب من المركز الصحيِّ الحكوميِّ، وهناك وجدتُ ضالَّتي. كان ممدَّداً على أحد أسرَّة الطوارئ، وعلى وجهه كمامة الأكسجين، وفي يده اليُسرى إبرة الحقن المعلَّقة إسطوانتها والمليئة بسائل شفاف على عمود معدني بجانب السرير، وقد التفَّ حوله طبيبٌ وممرضةٌ يطالعون بقلق شاشة تلفزيونية عليها أرقام تتحرك ببطء وتصدر صفيراً متقطعّاً. وقفتً وراءهم مباشرة. طالعتُ وجه جاري، فبدا لي كأنَّه رجلٌ قد فارق الحياة أو كاد! كان مغمضَ العينين، متهدِّلَ الفكَّين، ولا تصدر منه أدنى حركة.

انتبه الطبيب إلى وجودي وسألني: "هل أنت أحد أقرباء المريض؟" قلت له كاذباً: "نعم، هو والدي". تأسَّف الطبيب كثيراً لسوء وضعه المرَضي، وقال لي لائماً إنَّ حالته الصحيَّة متردِّية للغاية، وإنَّه سيلبث تحت العناية الفائقة حتى يستعيد الشفاء. تركني الطبيب والممرضة مع "والدي".

جلستُ بجانبه على السرير، ورحتُ أمعن النظر فيه. بدا لي رجلاً مسكيناً بلغ منه العُمر مبلغه، كهل لا حول ولا قوة له. تذكَّرتُ والدي الذي مات وأنا طالب أدرس في معهد التربية الفنيَّة. بعد موته اضُطررت إلى ترك مقاعد الدِّراسة لأرعى والدتي وبقيَّة إخواني كوني ابنه الأكبر. لم يكن لهم من عائلٍ سواي. تنقّلت في مهن ووظائف شتى من أجل لقمة العيش. بعتُ بثمن بخس أرضاً صغيرة المساحة ورثتها عن والدي الذي حصل عليها بمنحة حكومية منذ زمن طويل، ولكنه لم يستطع البناء عليها لضيق ذات اليد. كان موقعها في حي شرائع المجاهدين على أطراف مكة الشرقية، التي حولّها سكان ذلك الحي إلى مرمى لمخلفات البناء. اشتريت بثمنها سيارة صغيرة بعد التشاور مع بقيّة الورثة. كنت أذهب بها إلى عملي صباحاً وفي المساء أعمل سائقاً، أحمل زوّار بيت الله الحرام والمعتمرين في أنحاء مكة وأحيائها ومزاراتها، وأحياناً كانت مشاويري بين جدة ومكة ومطار الملك عبد العزيز ناقلاً الحجاج من مكة وإليها. كنت أعود إلى البيت منهكاً فأسقط كقتيل على سريري نائماً دون أن يتسنى لي حتى تبديل ملابسي. كانت سنوات مرَّة وقاسية. هذا الرجل المُسن يذكِّرني بكلِّ تفاصيلها. لو لم أضطر إلى ترك الدِّراسة، لكنتُ الآن مدرساً لمادَّة الرَّسم في إحدى المدارس الحكوميَّة، ولأصبح وضعي الماديّ والاجتماعيّ أفضل بكثير ممَّا عليه الآن: مجرّد موظَّف صغير في شركة للسيَّارات.

تبخرتْ كلُّ هذه العواطف الجيَّاشة، وتلاشتْ كما يتلاشى الدخانُ أمام هبَّة هواء حينما تذكَّرتُ السببَ الذي جعلني أطارد جاري العجوز في المسجد، وفي بيته، والآن في المستشفيات والمراكز الصحيَّة طوال اليومين السابقين. تذكَّرتُ كلام زوجته المُسنة التي قالت إنَّها أعطته مفتاح البيت ليتمكَّن من فتح الباب بعد أداء الصلاة. لمعتْ في ذهني الفكرة الشيطانيَّة. لا مجال للتردُّد أو الاستماع لتأنيب الضمير. تلفتُّ يميناً ويساراً ولم أرَ أحداً. مددتُ أصابعي متحسِّساً جيوب ثوبه، بدأتُ بالجيب الأيمن، فلم أجدْ شيئاً، وعندما أدخلت يدي في الجيب الأيسر، جاءت الممرضة فسحبتُ يدي بسرعةٍ، وأمسكتُ يد جاري، وطبعتُ على وجهي ملامح الأسى. طلبتْ منِّي الممرضة المساعدة في الحصول على عينِّة من دمه لعمل بعض التحاليل. كشفت الممرضةُ عن ذراعه النحيف المتهدِّل الجلد، وبانت عروقه المزرقَّة مثل حبال ناشفة، حائلة اللون، تعرَّضت لحرارة الشمس. أدخلت الممرضةُ رأس الحقنة في أحد عروقه، وسحبت قليلاً من الدم. بعد حصولها على عينّة الدم، طلبت مني الذهاب إلى الاستقبال لفتح ملف طبي للمريض ووضع مبلغ تحت الحساب، قالت لي ذلك ثم غادرت المكان. هززت رأسي موافقاً وفور خروجها عدتُ إلى ما بدأته. أسدلت الستائر التي تفصل بين مريض وآخر في قسم الطوارئ، ثمَّ استأنفتُ التفتيش في جيوبه. بحثتُ في الجيب الأيسر،

فلمستْ يدي شيئاً معدنيّاً بارداً فسحبتُه. فجأةً فتح جاري المُسن عينيه مفزوعاً كأنَّه انتبه من حلم مرعب، نظر في وجهي فشعرتُ بالذعر، وأصابني الخوف. سحبتُ المفتاحَ، فحاول منعي، وهو يصدر حشرجةً غريبةَ الصوت من صدره، ولكنَّني سحبته بقوَّة. قاومني لوهلةٍ ولكن خارتْ قواه. نظر إلي نظرةً أخيرةً غريبةً فيها رجاء ممزوج بخوف ودهشة، لم ولن أنساها، ولن أجدَ لها تفسيراً ما حييتُ. أغمض عينيه وعاد إلى وضعه الساكن. نظرتُ إلى ما أخرجته يدي، فكان المفتاح المربوط بقطعة من الجلد على شكل أنشوطة. أعدتُ كلَّ شيءٍ إلى وضعه السابق. رتَّبتُ ثوبه، ووضعتُ يديه المعروقتين الباردتين بجانبه. وضعتُ المفتاح في جيبي. أزحتُ الستارة. لمْ أرَ أحداً. ثمَّ غادرتُ المكان بكلِّ هدوءٍ مثل لصٍّ!

في طريقي إلى البيت، انتابتني مشاعرُ مختلطة. شعرتُ كأنَّني رجلٌ عديمُ الضمير والإحساس. رجلٌ فاقدُ الرجولة، يستغلُّ قوَّته إزاء رجلٍ مُسنٍّ لا قوَّة له. لازمني تأنيبُ الضمير حتَّى أوصلني إلى الشارع القريب من الحي. تلاشى كل شعور بالذنب مني حالما وازنت بين المغارم والمغانم لو أنني استجبت لتأنيب الضمير في كل خطوة في طريق هذا الوضع الشائك. سأضع ضميري قليلاً على الرف، وأنجز مهمتي، لعل الله يُحدثُ بعد ذلك أمراً. أوقفتُ السيَّارة بعيداً قليلاً عن البناية، واتَّجهتُ سيراً على قدميَّ، وقد قرَّرتُ

التسلل إلى بيت جاري العجوز! أريدُ أنْ أحصل على كنزي، ولا أريدُ شيئاً غير هذا. لستُ لصّاً ولن أكون في يوم كذلك. وعاهدتُ نفسي أنْ أعيدَ المفتاح إلى جاري العجوز فور انتهاء مهمَّتي، سأطلبُ من زوجتي أن تتعهَّد رعاية زوجته ريثما يعود من المستشفى، وسأبرِّر له إذا ما لامني على ما فعلتُ معه أنَّني كنتُ مضطراً إلى فعل ذلك لأنَّني أريد إعادة المفتاح إلى زوجته التي أغلقت الباب وراءها، حينما لجأت إلينا لتقديم العون والمساعدة لها. بدا لي هذا العذر مقنعاً نوعاً ما. لم أشأ الدخول مباشرة إلى بيت جاري حتَّى لا ألفتَ الأنظار. فدخلتُ مع بوابة البناية، وكمنتُ مثل قطٍّ عند بئر السلم لدقائق، ثمَّ أخرجتُ رأسي مستطلعاً من طرف الباب، وحالما تأكَّدتُ أنَّه لا يوجد أيُّ شخصٍ يراني، اتَّجهتُ إلى بيت الجار العجوز. فتحتُ الباب. أضأتُ النور، وأخذتُ أبحثُ عن المقعد الجلدي. درتُ ببصري هنا وهناك مثل جائع ينظر إلى صحاف من الطعام، ثُمّ... ثُمَّ لمحته في الزاوية اليُمنى من الحجرة الفقيرة من الأثاث. شعرتُ بالرَّاحة تغمر جسدي. تقدَّمتُ نحوه، وشققتُ المكان الذي أُدخلت من خلاله اللَّوحة. نسلتُها من مكانها. سقطتْ على الأرض صورة زوجة فيصل، التقطتُها، ووضعتُها في جيبي. شعرتُ كأنَّ همّاً ثقيلاً أُزيح من فوق كاهلي. وتنفَّستُ الصعداء. خرجتُ من باب الشقَّة ثمَّ أقفلتها، وعدتُ صاعداً السلَّم إلى شقَّتي في الدور الأعلى.

(٣٦)

القاهرة، ٢٦/٧/١٩٧٧

هبطتْ طائرة الخطوط المصريَّة القادمة من الكويت في مطار القاهرة الساعة الخامسة مساءً. لم يتناول محسن غداءه في البيت، بل تناوله في أحد مطاعم الوجبات السريعة في المطار. كان في شوقٍ لاستقبال أخيه صلاح القادم من الكويت في إجازة منتصف العام الدراسي القصيرة. كان لا يفوت أي إجازة لكي يحظى بلقاء والدته وأخيه ويتابع أعماله ومشاريعه في الوقت نفسه. استقبله فور خروجه من صالة القادمين. التحم الأخوان في عناقٍ حارٍّ، وبعد تبادل التحيَّات والقُبلات على الخدود، انتبه صلاح إلى أنَّ والدته ليست مع أخيه مثل كلِّ مرَّة، فشعر بالقلق. التفتَ متسائلاً نحو محسن فطمأنه أنَّها بصحةٍ وعافيةٍ، لكنها تعاني قليلاً من نوبة روماتيزم، وهي تنتظره في البيت لشوقٍ ولهفةٍ.

مدَّ محسن يدَه مصافحاً زوجة أخيه وولده الصغير. استقلُّوا سيَّارة ميكروباص حتَّى تستطيع نقلهم وحقائبهم الكثيرة الممتلئة بالهدايا لكلِّ الأقارب والأحباب والأصحاب. وصلوا إلى البناية التي يمتلكها في مدينة نصر. أنزل صلاح زوجته وولده والحقائب في شقته الواسعة في الدور الأول، وطلب من محسن أنْ يذهبَ به إلى والدته فوراً ليلقي عليها التحيَّة.

حالما رأته أمُّه، أصابتها نوبةَ من البكاء، وبصعوبةٍ سيطر على دموعه. طلبتْ منه وضع حدٍّ لحالة الاغتراب التي أغرق نفسه فيه أكثر من ثماني سنوات. قال لها بين دموعه التي لم يستطع حبسها في آخر الأمر:

- لم يبق لي سوى عام أو أقل وتنتهي سنوات الإعارة، وسأعود نهائيّاً للاستقرار في بلدي بينكم وبين أسرتي.

لمح ابن خالته عمران قادماً من حجرة محسن. تصافحا وتباوسا على الخدَّين. بعد دقائق شعر عمران بأنَّ وجوده بينهما لا مبرر له، ففضَّل الانسحاب. استأذن ثمَّ غادر المكان متحجِّجاً بوجود محاضرة مهمَّة في الكليَّة.

عمران أنجز المهمة الموكلة له بإتقان وبراعة لا توصف. مكث في البيت لا يغادره، وحينما خرج محسن من سجنه الذي امتد أسبوعين فقط، نظر إلى اللَّوحتين المثبتتين على حاملي الرسم، فاندهش، ولمعت عيناه، وفشل في تحديد أيهما الأصليَّة من المقلَّدة رغم أنَّه كان يعملُ في متحف يعجُّ بمئات اللَّوحات من مختلف دول العالم.

أمسك بكتفي عمران وشدَّه إلى صدره معانقاً، وقد عجز لسانه عن تقديم كلمات الشكر أو الإعجاب. أعطاه مبلغاً من المال كمكافأة له. رفض عمران في البداية أن يتسلَّمه ولكنَّ محسن الرمَّال أصرَّ على أخذه النقود. تناولها ودسَّها في جيبه، وعاد إلى الانخراط مرَّة أخرى في دراسته التي انقطع عنها لمدة تقارب أسبوعين.

كانت إجازة صلاح الرمَّال لا تتجاوز خمسة عشر يوماً قضى معظمها في ترتيب أوضاع عودته النهائيَّة المرتقبة بعد عام أو شهور معدودة. وقبل سفره بيوم واحد فقط، زاره محسن في بيته لتوديعه. ولم ينسَ أن يأخذ معه لوحة "أزهار الخشخاش" الأصليَّة. طواها ودسَّها في حقيبته الجلديَّة. استقبله صلاح، وتناولا معاً الشاي، وبعض قطع الكعك. كانت حقائب السفر مركونةً في إحدى زوايا الصالة. انتهز محسن غياب صلاح للذهاب إلى دورة المياه. اقترب من أصغر الحقائب التي من الممكن للراكب اصطحابها معه في الطائرة، وبسرعةٍ هائلةٍ أفرغها من محتوياتها، ثمَّ وضع اللَّوحة في قاع الحقيبة. وأعاد محتوياتها من أدوية ونظّارة طبية وأخرى شمسية ودفتر صغير للملاحظات وقلم وملابس قليلة. فعل ذلك في وقت وجيز، رغم أنّه يعرف أنَّ أخاه صلاح مصابٌ بداء البواسير، ويأخذ وقتاً أطول من الشخص السليم في قضاء حاجته في الحمام. وتذكر أن صلاح همس له ذات يوم أن عشقه للطعام الهندي المترع بالبهارات الحارَّة في مطاعم الكويت ساهم في تفاقم حالته المرضيَّة. بعد أن أنجز مهمَّته عاد إلى مقعده في الصالة وبدأ ارتشاف الشاي وقضم قطع الجاتوه.

في موعد السفر أصرَّ محسن أنْ يوصلَ أخاه وزوجته وابنه بنفسه إلى المطار. وطوال الوقت الذي يسبق موعد إقلاع الطائرة في طريقها إلى الكويت كان يذرع أرضيَّة صالة

المسافرين ماشياً في كلِّ الاتِّجاهات، ولم يتخلّص من قلقه وتوتره إلّا بعد أن رأى في شاشة الرحلات المغادرة والقادمة إقلاع رحلة الخطوط المصريَّة رقم ٥٧٢ المتَّجهة إلى الكويت، حينئذ فقط شعر براحة داخليَّة يكتنفها هدوءٌ لم يكن كاملاً بل كان مشوباً بنوعٍ من الندم.

(٣٧)

بصعوبةٍ استطعتُ إقناع زوجة جاري العجوز أنَّ زوجها بخير ولَم يمتْ، كما كانت تردِّد صائحةً مولولةً. وبصعوبةٍ كبرى، حاولتُ إفهامها صارخاً بأعلى صوتي لتتمكن من سماعي أنَّني قد قدِمت من المستشفى الذي يتلقَّى العلاج فيه، وهو تحت الرعايةِ الطبيَّة التي من الضروري أن يحصل عليها ليستعيد عافيته ويعود سالماً معافى. ولكي أزيد تطمينها، لوَّحت لها بمفتاح منزلهم، فاقتربت منِّي وهي تثبت نظارتها ذات العدستين السميكتين على عينيها لترى ماذا أحمل في يدي، وحالما رأت المفتاح، عرفته، فانبسطت أساريرها، وأطلقت تنهيدة ارتياح. استغللتُ الفرصة، وقلت لها كاذباً إنَّه سلَّمني المفتاح لأعطيكِ إيَّاه.

كانت زوجتي قلقةً وتشعر بالذنب لأنَّها كانت السبب في تسرُّب اللَّوحة من مكان إخفائها. وعندما أخبرتُها بإيجاز أنَّني استطعتُ استرجاع اللَّوحة من بيت جارنا المُسن اطمأنتْ، بل احتضنتني من شدَّة فرحها!

بعد أن استقرَّت الأمورُ قليلاً، قرَّرتُ الاتِّصال بفيصل. أشعرُ أنني لن أستطيع السير بمفردي ولديَّ مثل هذا الحمل الثقيل. أجريتُ اتِّصالي الأول معه منذُ أكثر من ثلاثة أيام مرعبة وشاقَّة وقاسية. بعد ثلاث رنَّات أجابني من الطرف الآخر

مرحِّباً. بدا لي من رنّة صوته المجلَّلة بالفرح أنّه في أفضل حالٍ. سألته أين هو الآن لأنَّني أرغب في رؤيته بسرعة، فأجابني أنَّه في طريقه إلى مكَّة برفقة زوجته.

لا أعرفُ لماذا خفق قلبي بشدَّة عندما ذكر زوجته؟

عاد بي بصري إلى تلك الصورة المختلسة. أنهيتُ المكالمة معه وأنا في حالة تفكيرٍ عميقٍ.

لا أعرفُ لماذا جاءني هاجسٌ ملحٌّ بأنَّ وجود زوجة فيصل في مكَّة سيشكِّل عبئاً نفسيّاً آخر لي، ولكنَّني سخرتُ من هذا الخاطر، وقلتُ لنفسي لائماً: ما دخل زوجة صديقك فيما يحدث لك؟ ابتسمتُ لنفسي شاعراً بمدى تفاهتي وتضخيمي أموراً لا يمكن أن تحدث. استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم، وبدأتُ فعليّاً التخلُّص الإيجابي من كنزي قبل أن يضيع منِّي للأبد. يكفي ما حدث وما يحدث لي منذُ ثلاثة أيام كانت الأسوأ طول عمري.

في المساء، فتحتُ بريدي الإلكترونيّ وفوجئتُ بوجود رسالة من الدكتور مبارك صادق جاء فيها ما يلي:

سعادة الأستاذ الباحث نواف ظافر

وسألتُ نفسي: مَن هو نواف ظافر هذا؟

تذكَّرتُ بعد لحظة تفكير بسيطة أنَّني أرسلتُ إلى الدكتور مبارك صادق اسماً وهميّاً لي.

ابتسمتُ، وأكملتُ القراءة:

تحيَّة طيِّبة وبعد،

أشكركَ علَى ثقتكَ بي. اطّلعتُ على رسالتك وكم كانتْ سعادتِي كبيرةً لكونِي وجدتُ شخصاً مثلكَ يهتمُّ بالرسَّامِ العالميِّ فان غوخ ولوحاتهِ وتاريخِ حياتِهِ الحافلةِ بالمنجزاتِ والمآسِي أيضاً.

أوَّل ما عرفتُ الرسَّامَ الهولنديَّ الشهيَر فينسنت فان غوخ كانَ منذُ زمنٍ طويلٍ، من مجلةٍ ثقافيَّةٍ كويتيَّةٍ شهيرةٍ تصدرُ من دولةِ الكويتِ مطلعَ كلِّ شهرٍ ميلادي. قرأتُ عنه تحقيقاً موسَّعاً علَى امتدادِ خمس عشرة صفحةً من الورقِ الصقيلِ اللامعِ. كانَ التحقيقُ شاملاً وافياً وكافياً، استخدم فيهِ ذلكَ الكاتبُ البارعُ منهجاً فريداً في عرضِ سيرتِهِ وبعضِ لوحاتهِ وظروفِ نشأتهِ، ومكانِ لوحاتهِ التي كانتْ منتشرةً في أهمِّ متاحفِ العالم، بدءاً من نيويورك، إلى لندن، إلى أمستردام، فطوكيو، وغيرها من المدن ذاتِ الشهرةِ والصيتِ العالميِّ الكبيرِ في رعايةِ الفنونِ الإنسانيَّةِ بمختلفِ أنواعِها ومشاربِها.

كلُّ ما أذكرُه منذُ ذلكَ التحقيقِ أنَّني لبثتُ زمناً طويلاً جدّاً أتأمَّلُ لوحاتِ ذلكَ الرسَّامِ العبقريِّ. لاحقاً طفتُ كلَّ المدنِ في مختلفِ قاراتِ العالمِ لأرَى لوحاتِه مباشرة. وكمْ كانتْ سعادتي غامرةً برؤيتِهَا والتمعُّنِ في تفاصيلِها، ومنذُ ذلكَ اليومَ أصبحَ فان غوخ شُغلِي الشاغل.

سأكونُ سعيداً بلقائكَ وجهاً لوجهٍ في الجامعةِ أو بيتي، أو أيِّ مكانٍ تختاره، وسأفعلُ مَا بوسعِي لتزويدِكَ بأهمِّ

الكتبِ والمراجعِ التي تتحدَّثُ عن هذا الرسَّامِ العظيمِ بكلِّ تفاصيلِها.

نظرتُ أسفل الرسالة فوجدتُ أنّه قد كتبَ تليفوناته في البيت والجامعة ورقم جوَّاله أيضاً، وعنوان بيته في حي العزيزيَّة في مكَّة.

أحسّستُ أنَّ هذه الخطوة هي أهم خطوة اتَّخذتُها حتَّى الآن ولم يبقَ إلّا وجود صديقي فيصل لنضعَ معاً اللَّمسات النهائيَّة لهذه القصَّةِ.

(٣٨)

القاهرة، ٢٩/٧/١٩٧٧

وضعتُ بينهما المصحف بينما كان جهاز الراديو يذيعُ تلاوةَ آياتٍ من القرآن الكريم من سورة مريم، للشيخ أبي العينين شيشع، تهزُّ القلب والبدن. ابنتهما الوحيدة مها نائمة على الكنبة القريبة منهما. قالت له وخطَّان من دموعها يلمعان على خدَّيها:

- أَقسم على كتاب الله الكريم؟

- على ماذا أُقسم؟

- على التوبةِ من كلِّ شيءٍ يعيق بينكَ وبينَ ربِّكَ، وبيتكَ، وزوجتكَ، وابنتكَ.

- سأُقسم...

- أُقسم...

وضع يدُه على المصحف، وأقسم مردِّداً الكلمات التي كانت تمليها إيَّاه بينما دموعها لا تزال تنهمر. بعد أن انتهى من القَسَم، ابتسمتْ لأوَّل مرَّة ربما منذُ سنوات بعيدة، أو هكذا خُيِّل له. احتضنته ثمَّ بدأتْ البكاء مرَّة أخرى. أحاط كتفيها بذراعيه. لبث معها على هذه الحال حتَّى استردَّتْ نفسها وسكنتْ روحها وهدأ اختلاج جسدهَا.

بعد أن استأصلتْ ابنتهما الكِلية التالفة، وخرجت من

المستشفى سليمةَ وبصحةٍ جيدةٍ انتابتها حالة "دروشة" غريبة، فكانت لا تنقطعُ عن الصلاة والإكثار من صيام النوافل، وقراءة القرآن في كلِّ وقت وحين. كانت تطيل سجودها وركوعها وتبكي. أراد أن يقول لها إنَّ الله سيرضى منها بما فرضه عليها دون أيِّ مبالغات، ولكنَّه ابتلع كلامه، ولم يتفوه به تحسُّباً لردَّ فعلها الذي لا يمكن التنبؤ بمداه.

حتَّى هو لم يسلم من تأثيرات قويَّة حدثت له بعد عمليَّة السرقة، إذ انتابته مشاعر غريبة وغير واضحة ولم يجد لها تفسيراً. كلّ ما يذكره أنَّه ذات فجر استمع للمؤذِّن يؤذِّن بصوتٍ عذبٍ رخيمٍ كأنَّه يسمعه لأوَّل مرَّة رغم أنَّه كان يسمعه آلاف المرَّات قبل ذلك، ولم يكن يحفل به. قام من فراشه في حجرته التي كان ينام فيها بمفرده بعد أن رفضت زوجته أن يناما في حجرةٍ واحدةٍ! كان قد ترك شقَّة الكيت كات منذُ سلَّم اللَّوحة المسروقة لمحسن الرمَّال واستلم منه جزءاً من "أتعابه" في السرقة التي ذهب ضحيتها الكثير من موظَّفي المتحف بعد تحقيقات موسَّعة طاولتهم جميعاً. حتَّى هو الذي كان يتمتَّع بإجازة لمرافقة ابنته المريضة!

تمَّ فصلهم جميعاً من أعمالهم وبعضهم تعرّض للسجن خصوصاً رؤساء ومديرو أقسام المتحف. هكذا، بلمح البصر وجدوا أنفسهم بلا وظائف تحميهم وعائلاتهم غوائل الزمن.

حبسوه لمدَّة خمسة عشر يوماً على ذمَّة التحقيق، وعندما لم يجدوا أيَّ دليل يثبت ضلوعه في السرقة، أطلقوا سراحه

مع بقيَّة زملائه.

الغريب أنّ إدارة المتحف أعلنت بعد أيام قلائل من حدوث السرقة عبر وسائل الاعلام أنَّ اللوحة المسروقة ليست الأصليّة بل مجرد لوحة مقلّدة بينما اللوحة الحقيقية موجودة في مكان آمن، وربما كان هذا من أهم الأسباب التي دعت للإفراج عنهم.

حينما سمع وقرأ محسن الرمّال هذا، ابتسم بسخرية بينه وبين نفسه، وأدرك أن كل هذا مجرد مناورة لإرباك اللصوص الذين سرقوا اللوحة وتشكيكهم فيها ليفقدوا الاهتمام بها. كان يتوقّع حدوث مثل هذا الأمر، فاكتفى بالصمت والهدوء.

بعد خروجهم من السجن على ذمّة التحقيق الذي استمر أربعة عشر يوماً، أخبره محسن الرمَّال في جلسة صفاء نادرة بثَّ كل واحد منهما للآخر مخاوفه وهواجسه بنسخه اللوحة، وإرسال الأصليَّة المسروقة إلى الكويت برفقه أخيه الذي لا يعلم عنها شيئا ريثما يلحق به إلى هناك في بعد شهر أو شهرين بحجَّة البحث له عن عمل هناك ليسترجع الأصلية، وعندما سأله عن سبب تصرُّفه، قال له كلمات أوقفت شعر رأسه:

- لأحمي نفسي.

- تحمِّي نفسك؟!

- نعم.

- مِنْ مَنْ؟
- مِنْ كلِّ مَن يريد محاولة مسِّ شعرةٍ منِّي!
- مَن هُم هؤلاء الذين سيمسُّون شعر رأسك؟ هل الموضوع خطير لهذه الدرجة؟
- سؤالك الأوَّل لن أجيبك عنه لأنَّه سابق لأوانه، أمَّا جواب سؤالك الثاني، فهو: أخطرُ ممّا تتصوَّر!
توقَّفا عن الكلام لمدة، فقطع الصمتَ محسنٌ بقولهِ:
- يُستحسن ألا نلتقِي أبداً حتَّى تهدأ الضجَّةُ التي صاحبتْ عمليَّة سرقة اللَّوحة.
- وماذا سنفعل؟
- سنسلِّم الشقَّة لصاحبها، ويذهب كلٌّ واحدٍ منَّا في حال سبيله.
هكذا، افترقا. لم يعدْ يراه بعد ذلك إلّا لُماماً، ولو حدث أنْ التقيا بالمصادفة المحضة، كان محسن الرمَّال يشيحُ بوجهه عنه كأنَّه لا يعرفه. أدرك أنه كان مجرد وسيلة للإعداد لعملية سرقة كبيرة: ترس صغير من ضمن تروس كبيرة وصغيرة كل واحد منها يتحرّك ليؤدي وظيفته. ساءه كثيراً أنّه كان مجرد بيدق صغير يتحرك بخطوات محسوبة على رقعة شطرنج كبيرة وقد تمّت التضحية بهذا "البيدق" عندما لم يعد له أي نفع بعد أن أدى دوره المنوط به. تجاهله محسن. أتعبه هذا النكران والجحود، وأتعبه أكثر أنَّه لم ولن يتسلَّم بقيَّة "أتعابه" من بيع اللَّوحة الأصليَّة: الأربعين ألف

جنيه، كما قال له محسن بعد عمليَّة السرقة مباشرةً. كان بمثل هذا المبلغ سيتمكن من بناء حياته على أساس صلب، وستكون انطلاقة جيِّدة نحو مستقبل مشرق لو تمّكن من استثماره بالطريقة السليمة. لكن المبلغ طار، وطارت معه الأحلام والطموحات. وأدرك أنَّ من الخطورة بمكان أن تلقي أو تصدّق وعوداً هكذا جُزافاً في لحظات الفرح أو الانتصار، قبل أو بعد الخروج من مأزقٍ ما. لكنَّه سرعانَ ما عاد إلى بيته وابنته وزوجته محاولاً إصلاح ما فسد في هذه العلاقة التي أصبحتْ بمرورِ الأيام والشهورِ في مهبِّ الرِّيحِ.

عاد إلى زوجته وبيته وابنته، لكنَّه لم ينسَ ما فعلَه محسن الرمَّال.

(٣٩)

مكَّة المكرَّمة، ٢٨/٨/٢٠٠٣

جاءني صباح اليوم خبر حزين هو موت جاري العجوز بسبب نوبة قلبية كما عرفت في وقت لاحق. علمت ذلك عندما تناهت إلي صرخات زوجته العجوز. هبطت درج السُّلم بخطوات متسارعة مع زوجتي نحو بيتهم. كانت تصيح وتبكي بصوت متهدج أتعبته السنين وخذله أرذل العُمْر. شعرت بالأسى وتأنيب الضمير. وانتابتني الهواجس بأنني ربما كنت السبب في موته بسبب زيارتي إليه في المستشفى للحصول على مفتاح بيته عِنوة. تذكرت نظراته الأخيرة الممتلئة بالرعب والخوف والممزوجة بالاستغراب، وتذكرت تلك الأصوات الغريبة التي تشبه الشخير التي خرجت من حنجرته، فشعرت بألم قاس في صدري ولوعة مثل جمرة متقّدة. تساءلت بيني وبين نفسي شاعراً بغصَّة تمسك بحنجرتي: هل مات جاري العجوز بسبب زيارتي "المخزية"؟ من الذي فتح له ملفاً طبيَّاً ودفع فاتورة علاج جاري المسكين الذي تخليت عنه في أحلك الظروف؟ كل هذه الهواجس التي كانت تلّح عليّ وتثقل روحي تجعلني تحت وطأة شعور متعاظم بالندم والحسرة.

بعد أن عدنا من بيت جارتنا العجوز، انزويت في الحمام

وبكيت بشّدة وبصوت مكتوم ذكرني ببكائي على والدي حينما انتقل إلى رحمة الله. طرقت زوجتي عليّ باب الحمام حينما لاحظت طول مكوثي فيه، فغسلت وجهني جيداً، وأزلت آثار البكاء، وقررت بيني وبين نفسي، وأخذت عهداً غليظاً بأنني في حال بيع تلك اللوحة الثمينة التي بحوزتي سوف أبني مسجداً هنا في مكة أو إحدى قُراها، ليكون صدقة جارية على روح المرحوم جاري العجوز تكفيراً للذنب الذي اقترفته يداي بحقّه، وسوف أرعى زوجته بمعيّة زوجتي ونقدم إليها يد العون والمساعدة ما دامت على قيد الحياة.

بعد ثلاثة أيام من وفاة جاري العجوز قررت تحييد الأحزان قليلاً، والانتباه إلى ما هو أهم في الوقت الحالي. التقيتُ وفيصل بالدكتور مبارك صادق في بيته في حي الزاهر بعد أن تمَّ تنسيق موعد اللقاء معه. كان ترحيبه بنا حارّاً، وسبَّب لنا الكثير من الخجل! الخجل لأنَّني لم أكن صادقاً معه من البداية. انتحلت صفة الباحث بينما كنتُ مجرَّد موظَّف بسيط ترك الدراسة وقراءة الكتب منذُ وقت بعيدٍ، لأن الزمن وقوانينه لا ترحمُ أحداً. قرَّرتُ الاعتراف له بكلِّ شيءٍ من أوّل لقاء، وليكن ما يكون.

بعد تبادل الأحاديث الوديَّة أخذَ فيصل زمام الحديث، وحكى قصتنا لهذا الرجل الذي ارتاحت نفسي لمرآه من الوهلة الأولى. بدا لنا كمستمعٍ جيِّدٍ ومحاورٍ من الطراز الأول. لا يلقي الكلام هكذا على عواهنه، بل يقيسُ كلَّ كلمة قبل التفوّه

بها. استمع لنا باهتمام، ولم يتكلم إلّا بعد مدة طويلة من الصمت بعد أن أصابنا اليأسُ من طول سكوته، قال لنا بصوته الواثق والهادئ:

- هناك – بطبيعة الحال – الكثير من اللوحات العالمية المسروقة، ومن متابعتي ومعلوماتي عن هذه اللوحات المسروقة أستطيع أن أذكر منها مثلاً لوحة "أوفير سور واز" للفنان بول سيزان وقد سرقت عام ١٩٩٩، ولوحة "تشير توتي" التي رسمها الفنان ادوار مانيه وقد سُرقت تقريباً في ١٩٩٥. لوحة "الحفلة الموسيقية" للفنان يوهانس فيرمير سُرقت في عام ١٩٩٠، ولوحة "السّيدة والسيّد في اللباس الأسود" للفنان رمبرانت في ١٩٩١. ولوحة "منظر من البحر في شيفينينجن" للرسام فان غوخ وقد سُرقت قبل عام ٢٠٠٢ – أي قبل عام من العام الحالي – وبالطبع هناك لوحة "زهور الخشخاش" للرسام فان غوخ التي نتحدث عنها الآن، التي سُرقت من متحف محمد محمود ل عام ١٩٧٧، ولوحة "صورة شخصيّة لرامبرانت" رسمها الفنان لنفسه، ولوحة "نصب عمودي" للرسام جوفرت فلينك، ولوحة "العاصفة على بحر الجليل" للرسام رامبرانت سرقت عام ١٩٩٠.

صمت قليلاً عن الكلام. كنا نستمع له بانبهار وإعجاب شديدين. قطع الصمت قائلاً:

- ألا تلاحظان شيئاً غريباً في هذا الأمر؟

ران علينا الصمت، فاستأنف قائلاً:

- معظم هذه اللوحات سُرقت ما بين ١٩٩٠ و١٩٩٩ أي في ظرف تسع سنوات فقط، ويلاحظ كذلك أنّ معظم اللوحات التي سُرقت كانت لرامبرانت ولفان غوخ. هما من أكثر الرسامين الذين تعرّضت أعمالهم للسرقات.

توقف قليلاً عن الكلام ثم قال راسماً بسمة عذبة على شفتيه:

- لا بأس! لكنَّنا يجبُ أن نتأكَّد أولاً من اللَّوحة التي بحوزتكما هل هي الأصليَّة أو أنَّها من اللَّوحات المزيَّفة!

تنحنحَ، ثمَّ استأنفَ قوله:

- لم يهتم الناس بفان غوخ ولا بلوحاته إلا بعد وفاته بثلاثين عاماً، وقد اكتشف الفنانون والنقَّاد والمتخصصون في لوحاته وتقنياته نمطاً فنيّاً جديداً وروحاً قلقة وحيَّة تنوس بين لوحاته ولا تموت بتعاقب السنين. والغريب أنّ الكثيرُ من لوحاتِه تعرَّضتْ للسرقة وللتزييف أيضاً. لقد ترك لنا هذا الفنان الكبير أكثر من ثلاثمئة لوحة – إنْ لمْ تخنِّي الذاكرةُ – سُرقتْ أكثر من مئتين منها بعد موته. لوحاته الآن تُباع بعشرات الملايين من الدولارات رغم أنَّه مات فقيراً معدماً ويائساً أيضاً!

(٤٠)

كنَّا نستمع لحديثه العذب والمرتَّب بإنصاتٍ شديدٍ وإعجابٍ أشد. نهضَ من مكانه، وخطا نحو مكتبتهِ الكبيرة التي كانت على امتداد أكبر جدران صالة الجلوس الواسعة. ارتدى نظارته الطبيَّة ثمَّ بحث بين رفوفها عن شيءٍ معيَّنٍ. سحب كتاباً كبيرَ الحجمِ، مصقولَ الغلافِ، وجاء به إلى حيث كنَّا جلوساً. فتحَ صفحاته بسرعةٍ، ثمَّ توقَّف عند صفحة معيَّنة. أمسك الكتاب وأطلعنا على الصفحة التي فتحها، وقال لنا:

ـ أليست اللَّوحة التي معكما تشبه هذه اللَّوحة؟

نظرنا معاً في الصفحة. هززنَا رأسينَا، ثمَّ قُلنا بصوتٍ واحدٍ كأنَّنا طالبان في فصل دراسي يختبرهما أستاذهما:

ـ نعم! هي صورة اللَّوحة التي لدينا.

هزَّ رأسه الذي خطَّه الشيب واستغرقَ في تفكيرٍ عميقٍ. كان ينظر إلى سقف الحجرة الواسعة، ويبدو كأنَّه قد نسي وجودنا تماماً. بعد أن أصابنا اليأسُ من عودته العقليَّة، فاجأنا بقوله:

ـ الغريبُ أنَّ هذه اللَّوحة تعرضَّت للسرقة من متحف محمد محمود خليل في ١٩٧٧، أو ١٩٧٨، لا أعرفُ تحديداً التاريخ، ولكنها عادت إلى المتحف نفسه بعد عامين في ظروف وُصفت آنذاك بالغامضة. ثمَّ قِيل أنَّ اللَّوحة المُعادة لم

تكن الأصليَّة بل لوحة مقلّدة تقليداً غريباً. أتذكّر أنّني قرأتُ للكاتب الكبير يوسف إدريس – رحمه الله – في إحدى مقالاته عام ١٩٨٨، وقد أحدث ضجّة كبرى آنذاك، أنَّ لوحة "زهور الخشخاش" لفان غوخ الموجودة في متحف محمد محمود خليل غير حقيقيّة بل مزيّفة! وذكر في مقالته أنَّ اللَّوحة الأصليَّة خرجت من مصر فور سرقتها لأوَّل مرَّة في ١٩٧٧.

قال له فيصل:

- ماذا يعني حديثك يا دكتور؟

- ما أعنيه هو شيءٌ واحدٌ: لا بدَّ ألّا يغيب عن تفكيركما أنَّ أيَّ شخصٍ، في أيِّ مكانٍ في العالم، يعرفُ ظروف وحيثيات اختفاء لوحة "زهور الخشخاش" لفان غوخ، ويجد نسخةً منها، فمن المحتمل أن تكون اللَّوحة التي معه هي الأصليَّة. ينسحب الأمر كذلك على بقيّة اللوحات المسروقة الأخرى التي ذكرتها لكم في سياق الحديث حتَّى تثبت التحاليل أنَّها الأصليَّة أو المزيَّفة. حتى هذه التحاليل تكون مكلّفة ماديّاً، وتُجرى في عدة مختبرات في عواصم كثيرة حول العالم، وقد تستغرق وقتاً للحصول على النتائج المرجوة لكنها غير مضمونة. غياب قاعدة بيانات للَّوحات العالميَّة ذات الصبغة التاريخيَّة في ذلك الزمن ساعد على تفاقم المشكلة، واختلاط الحابل بالنابل!

التفتَ نحوي وسألني مرَّة أخرى:

- كيف حصلت عليها؟ فأعدتُ عليه القصَّة من أوِّلها

باختصار.

ابتسم في وجهي، ثمَّ قال:

ـ إذا فرضنا أنَّ اللَّوحة التي معك كانت هي الضائعة، ماذا تريد أن تفعل بها؟

قلتُ له بكلِّ بساطةٍ وبلا تفكير:

ـ سأبيعها بالطبع!

اتَّسعت ابتسامته، ثمَّ قال:

ـ أؤكِّد لكَ أنَّه بمجرَّد أن تعلم وسائل الإعلام أنَّ لديك لوحة فان غوخ "أزهار الخشخاش" المجهولة المصير حتى الآن، ستجد الكثير من المشترين الذين سيدفعون لك المبلغ الذي تريد

فرحتُ بكلامه؛ لأنَّه فتح لي باب أمل ضئيل، ولكن ربما اتَّسع هذا الأمل، وأصبح أكبر منِّي، ومن أحلامي، ومن توقُّعاتي في يومٍ ما.

سأله فيصل:

ـ بماذا تشير علينا يا دكتور؟

اكتستْ ملامحه بجديَّة غير معهودة رأيناها على ملامحه لأوَّل مرَّة في لقائنا القصير:

ـ أنصحك بالبيع فوراً وبلا تردد. لن تحتمل العبء الكبير – بكل تأكيد – الذي سيثقل كاهلك لامتلاكك لها. أنتَ رجلٌ لا تريدُ أن تقتني لوحةً عالميَّةً، بل تريدُ بيعها، وهذا من حقك بالطبع، أليس كذلك؟

- نعم!

أجبنا كلنا بصوتٍ واحدٍ، وخطرَ لي سؤالٌ:

- مَن الذي سيشتري لوحةً عالميَّةً تاريخيَّةً غاليةَ الثمن وهو لا يعرف هل هي حقيقيَّة أو زائفة؟

لمعت عيناه وقال لي:

- سؤالٌ مهمٌّ جدّاً، وجوابه بسيطٌ: لو أنَّ اللَّوحة التي بحوزتك الآن غير لوحة "أزهار الخشخاش" لفان غوخ، ما التفت إليها أحد، ولكن اللَّوحة التي معك لوحة مصيرها مجهول منذُ سرقتها حتَّى الساعة، ومن هذا المنطلق، سوف يضغط عليك المشترون، بسبب الزخم الاعلامي، لكي تبيعها بأقصر وقت ممكن، وبأبخس ثمن، وهم بطريقتهم سوف يتأكَّدون – فيما بعد – هل هي حقيقيَّة أو زائفة.

سأله فيصل:

- بأبخسِ ثمنٍ؟ كم سيكون ثمنها في رأيك يا دكتور؟

- في ظنِّي أنَّهم لن يدفعوا لكما أكثر من مليونين أو ثلاثة ملايين على الأكثر. لكن لو كانت اللَّوحة هي الأصليَّة، فلن يبيعها الذي اشتراها منكما بأقل من خمسين مليون دولار! هذا هو سعرها في سوق اللَّوحات اليوم.

بعمليَّة حسابيَّة سريعة في عقلي، وجدتُ أنَّ سعر اللَّوحة بالريال السعودي سيكون مئة وسبعين مليوناً من الريالات.

كدتُ أصيح من الدهشة، ولكنَّني لم أكد أمسك نفسي.

ابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ حينما نطقَ الدكتور مبارك بالرقم!

قال لنا الدكتور مبارك:

ـ اذهبا الآن وأحضرا اللَّوحة إلى هنا، وفي هذه الآونة، سأتَّصل بصديقٍ صحافيٍّ مخضرمٍ سيعلن الخبر غداً في الصفحة الأولى من صحيفته الواسعة الانتشار... ما رأيكما؟

لم يطل بنا التفكيرُ. انطلقتُ مع فيصل إلى بيتي لكي نحضر اللَّوحة إلى الدكتور مبارك صادق.

حينما غادرتُ بيت البروفيسور لم أكنْ الشخص نفسه الذي كنتُ عليه قبل أن التقيه، فقد كان جسدي يرتجفُ، والأفكار تنثالُ من عقلي، ولا شيء يستطيع إيقافها. أمشي كأنَّني أسيرُ في قطبٍ متجمِّدٍ لا يوجد فيه سوى البرد والزمهرير.

(٤١)

القاهرة، ١٩/١١/١٩٧٨

قضى محسن الرمَّال الشهورَ السابقة في البحث عن مشترٍ للوحةِ "زهور الخشخاش" المقلّدة التي بحوزته. بعد هدوء الضجّة الإعلامية التي أعقبت عملية السرقة، أجرى الكثير من الاتِّصالات السرِّية بمن يعرفهم من زوّار شقّة الكيت كات، وبمن لهم باع طويل في عمليَّات السمسرة، وبيع الآثار الفرعونيَّة، ومقتنيات المتاحف المصريَّة المسروقة. يعرفُ أنَّ لهذه التجارة سوقاً رائجاً. كان أهم لقاء أجراه مع تاجر ومهرِّب آثار له سمعةٌ معروفة في البلد. كان محميّاً من أطراف عدّة خصوصاً من رفقاء شقّة الكيت كات، شأنه شأن كلِّ مَن يتاجر بمثل هذا النوع من التجارة المربحة. التقى محسن في ردهة أحد فنادق النجوم الخمسة الواقعة أمام النِّيل مباشرةً في القاهرة. حرص محسن في اللقاء أنْ يبدوَ كتاجرٍ له مكانةٌ مرموقةٌ لذا حرص – أشدَّ الحرص – على الشكليَّات من مظهر أنيق، وسيَّارة، ومرافقين تأجّرهم بالسّاعة. في ذلك اللقاء، وضعت الخطوط العريضة لتسليم اللَّوحة مقابل ثلاثة ملايين دولار على أن يكونَ التسليمُ بعد عيد الفطر بأربعة أيام.

بعد لقاء ذلك التاجر، عادَ محسن إلى بيته. أخرج اللَّوحة

المزيَّفة التي رسمها عمران. تأمَّلها، ثمَّ وضعها في حقيبةٍ جلديَّةٍ أنيقة الشكل اشتراها من أحد محلات بيع الجلديات في وكالةَ الغوري وقد ارتسمتْ على وجهه ابتسامةُ مكرٍ. في ليلة العيد، عيد الفطر، أجرى اتِّصالاً بأخيه صلاح في الكويت بحجَّة الاطمئنان إليه. حينما ردَّ كان صوته يبدو مريضاً معلولاً، فسأله هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟ فطمأنه الأخير. لكنَّه ختم حديثه مع أخيه بكلمات جعلتْ قلبه يقفز من مكانه، قال له أخوه بين سعاله المتصاعد: إنَّه قد أدّى عمرةً إلى بيت الله الحرام في أواخر رمضان، وكان كلُّ شيءٍ فيها على ما يرام لكنه فَقَدَ حقائبه كلَّها ولم يعثرْ لها على أثرٍ.

وجم محسن الرمَّال. كان يردِّد بلوعةٍ كلمةً واحدةً: مستحيل! مستحيل!

كان أخوه على الطرف الآخر يناديه: ألووه... ألووه... ألووه! عن أيِّ مستحيل تتحدَّثُ يا محسن؟ ألووه... محسن رُدَّ عليّ!

أقفل محسن السمَّاعة مذهولاً، وشعور بالغبن المُرِّ يجتاحُ قلبه. هل ضاعت اللوحة الثمينة منه بكل هذه البساطة؟ هل هي مجرد كذبة من أخيه ليستولي على اللوحة بمفردة بعد أن وجدها محشورة في حقيبته وعرف قيمتها؟ أيعقل أن تضيع كل خططه في سبيل الحصول على هذه اللوحة الثمينة التي أنفق فيها شهوراً طويلة هباءً منثوراً؟ كانت هذه الأسئلة تخدش بقسوة قلبه وعقله. فكر أن يعاود الاتصال

بأخيه مستفسراً أكثر. أمسك سماعة التليفون لكنه أعادها إلى مكانها. ما الذي سيقوله له؟ هل سيسأله عن اللوحة أو الحقيبة التي تختبئ فيها؟ أحسّ بالحيرة تنهش عقله. كان متأكداً تماماً أن صلاح لو عرف أن معه لوحة ثمينة ومسروقة، فإنه حتماً سيعيدها إلى صاحبها من الفور وبلا أي تردد. يتذكر دائماً قوله لأخيه أنه "وش فقر". يعرف أن صلاح من "طينة" أخرى غير "طينته"، رغم أنهما أخوان شقيقان. لكنْ لا وقتَ لديه ليضيّعه في العتابِ والتحسُّرِ. الخطوة الأهم الآن هي التخلُّص من اللَّوحة التي معه، وسيكون له مع أخيه شأن آخر فيما بعد. سيسافر بنفسه إلى الكويت ليستجلي الأمر عن قرب، ومن دون أن يُشعِر صلاح بما يكنّه في صدره من سر عظيم.

تسارعت الأحداث، فلم تدع له أي فرصة للتفكير وتقليب الأمر على مختلف وجوهه، ففي المساء نفسه، تلقَّى اتِّصالاً من السمسار لكي يخبره بمكان اللقاء. وصف له شقَّة تقع في شارع الهرم. أعطاه توصيفاً دقيقاً للمكان، وأخبره أنَّ التسليم سيكون في تمام الثالثة صباحاً وكل ما عليه فعله التوجُّه إلى المكان المتَّفق عليه وأن يكون بمفرده. والخطَّة التي لقنوه إيَّاها ستكون كما يلي:

يستقلُّ بمفرده سيَّارةَ أجرة، ويقفُ على ناصية شارع فاطمة رشدي، ثمَّ يعدُّ ثلاث بنايات على يده اليمين، وبعد المبنى الثالث يجدُ زقاقاً ضيِّقاً، وفي آخر الزقاق، سيجد

أربعة اشخاص معهم حقيبتان فيهما المبلغ المتفق عليه. يسلِّمُ اللَّوحةَ، ويستلمُ المالَ، ويغادرُ كلٌّ طرف بكلِّ هدوءٍ في طريقه.

قبيل الموعد بساعتين، كان محسن قد بلغ قمَّة توتره. فتح الحقيبة، ونظر إلى اللوحة ربما للمرَّة المئة خلال الساعات الماضية. قبيل الموعد بساعةٍ واحدةٍ، في تمام الثانية صباحاً، حمل الحقيبة، وفي شارع المُعزّ لدين الله أوقف سيَّارة أجرة، وطلب منه الذهاب إلى شارع الهرم وأن يتوقَّف عند ناصية شارع فاطمة رشدي. في الطريق، نظر إلى ساعته. لا يزال أمامه أكثر من خمس وأربعين دقيقة للوصول إلى المكان المتَّفق عليه. أنزله السائق في بداية شارع فاطمة رشدي، وهناك أدار بصره فرأى البنايات الثلاث المتشابهة التي وصفوها له. مشى بخطواتٍ واثقةٍ. مرَّ بالبناية الأولى، فالثانية، فالثالثة، وبعد الأخيرة لمح الزقاق المعتم، فانقبض قلبه وسرت رجفة باردة في جسده، وخطر له أن يعود أدراجه إلى البيت، وهناك سيطلب منهم تحديد مكان آخر يختاره بنفسه. شعر بالندم لكونه لم يملك زمام المبادرة ويحدِّد الوقت والمكان اللذين يلائمانه لتسليم اللَّوحة. كان يفضّل لو أن هذه الصفقة تمت مع أصدقائه المعروفين الذين كانوا يزورونه قي شقّة الكيت كات. هجس له خاطر أنْ يعودَ من حيث أتى، ولكنَّه حسب حساب الثمن الذي سيدفعه نظير هذه الخطوة. لن يثق به بعد الآن أيُّ

تاجر، أو مشترٍ، وستلطخ سمعته بالوحل، ولن يجد أيَّ مشترٍ لما معه. قرَّر أن يستمر في مهمته حتَّى آخرها. كان متحرّقاً للسفر إلى الكويت للقاء أخيه ليعرف هل اللوحة الأصليّة معه أو ضاعت مع حقائبه التي فقدها في مكة المكرمة أثناء تأديته العُمرة، كما قال له في تلك المحادثة التليفونية المشؤومة صباح اليوم. قال لنفسه: إنَّ مَن يتاجر في مثل هذا النوع من التجارة لا بدَّ أن يكون شجاعاً قويَّ القلب، وذا ثقة لا حدود لها، فلا مجال البتة للتردد!

مع بداية الزقاق التفت يميناً وشمالاً، لمْ يرَ أحداً. كلُّ شيءٍ كان ساكناً ويوحي بالطمأنينة. شدَّ الحقيبة على جنبه الأيمن، ودخل الزقاق.

بعد حوالى مئة متر، كان هناك ضوء شحيح ينبعث من نافذة إحدى البنايات القديمة المطلة على الزقاق الضيق، رأى من خلاله أربعة أشخاص بدوا مثل أشباح تناسلت من الظلام وسرعان ما تتبدد مع انقشاعه. كانوا واقفين على مسافة قريبة، حليقي الرؤوس، كانوا متشابهين كأنهم نسخة كربونية طبق الأصل من رجل واحد. يرتدي كل واحد منهم "بالطو" أسود اللون يصل حتى منتصف ساقه، ويضعون بأيديهم قفازات سوداء اللون. انقبض قلبه من منظرهم لكنه تقدَّم نحوهم متصنعاً غياب التردد أو الخوف، وحالما رأوه، ساروا باتجاهه. عندما أصبحوا وجهاً لوجه، مدُّوا إليه الحقيبتين، ووضعوهما على الأرض أمام قدميه. نزع محسن

الحقيبة من فوق كتفه، وسلّمها لهم محاولاً أن يتبين ملامحهم لكن الظلام المهيمن على المكان لم يمكّنه من ذلك. أضاء أحدهم بمصباح يدوي صغير داخل الحقيبة لثوانٍ معدودة، ثمَّ أعاد إغلاقها. سلَّمها إلى الرجل الواقف على يمينه. أضاء المصباح ونظر إلى اللَّوحة. هزَّ رأسه موافقاً. تناول محسن الحقيبتين واستدار مغادراً. لم يكد يسير خطوتين حتَّى شعر بشيءٍ حادٍّ يخترقُ كتفه الأيسر، التفتَ فرأى أحدَ الرجال الأربعة بيده مُدية حادَّة. استدارَ محسن محاولاً الهرب، ولكنَّ طعنةً ثانيةً اخترقت ظهره، فطعنة ثالثة، فرابعة! وقتئذ فقط لم يعد يشعر بشيءٍ، فسقط على الأرض مضرجاً بدمائه. تناول أحد الرجال الأربعة حقيبتي المال، ثمَّ أخذوا طريقهم في الجهة المقابلة نحو سيَّارة في انتظارهم كانت أبوابها الثلاثة مفتوحة. ركبوا جميعهم، ثمَّ انطلقوا على وجه السرعة.

(٤٢)

ذهب رؤوف إلى صلاة الفجر بعد انقطاع طويل امتد لسنوات لم يعد يستطيع معرفة حصرها، واستمع للإمام يتلو آياتٍ من القرآن الكريم، فاهتزت روحه وارتعش جسده، مرَّ شريطُ حياته أمامه بكلِّ خيباته وأفراحه القليلة في لحظاتٍ.

وأخذ يبكي رغماً عنه.

بعد ذلك الفجر تغيَّرتْ حياته تماماً. أصبح رجلاً آخر. لم تفته صلاةٌ واحدةٌ جماعةً في الجامع الأزهر الذي يذهب إليه ماشياً رغم بُعده النسبي عن بيته الواقع في حارة برجوان. يشعر بصفاء روحي غريب حينما يمشي في عتمة الفجر الوادعة من بيته في حارة برجوان حتى الجامع الأزهر. بالطبع، كانت زوجته لا تسعها الفرحة حينما رأتْ هذه التغيُّرات الجذريَّة على زوجها، وقرَّرتْ الالتفاف حوله ورعايته حتَّى لا يتعرَّض لأيِّ انتكاسةٍ. كان له وِرده اليوميّ من قراءة القرآن الكريم ومن قيام الليل. استمرَّ على تلك الحال حتَّى انتهى المبلغ الذي تسلَّمه نظير السرقة، والذي كذب بصدده على زوجته عندما أرادت أن تعرف مصدر ما معه مالٍ، فقال لها كاذباً إنَّه قد باع آخر أربعة أفدنة من أرض أبيه الزراعيَّة في الفيوم. صدَّقته لأنَّها كانت راغبةً في تصديقهِ. قلبها لن يحتمل صدمةً أخرى منه. أرادت أن تمنحه

فرصةَ أخيرةً؛ لعلَّ وعسى!

لكن جاء اليوم الذي صحا فيه من نومه، وقد نفد ما معه من مالٍ. تبخرت بسرعة آلاف الجنيهات التي استلمها من محسن. وجد نفسه في مهب الريح مرة أخرى. الحقيقة الوحيدة التي خرج بها من تجربته السابقة هي أنَّ الحصول على المال بطرق ملتوية أسهل ألف مرَّة من الطرق الصحيحة المستقيمة. لكنَّه لم يستسلم. طوى صفحات سنوات عمره السابقة، وعاهد نفسه على ألا يعود إليها مهما كانت المغريات، والظروف، والمعيشة الضنك.

بحث عن عملٍ في كلِّ مكان، لكنَّ سجله الأسود في أقسام الشرطة كان دوماً حائلاً بينه وبين أيِّ وظيفةٍ حكوميَّةٍ. سوَّدتْ سجَّله قضايا لم يكن يهتم لها آنذاك مثل قضايا السُكر، والدعارة، وتعاطي الحشيش، التي كانت تحدث كلَّ مدة وأخرى أيام شقَّة الكيت الكات وفي أماكن أخرى.

اغتالته الحاجة وجرحته بأنيابها. عمل عتَّالاً في أحد الفنادق الكبيرة ذات النجوم الخمس لكنَّه لم يستطع الصبر على تفاهات بعض البشر من النزلاء الفارغي العقول والقلوب. اشتغل جرسوناً في مطعم لكنَّه لم يستطع الصبر على هذا النوع من العمل المضني، إذ يبدأ العمل من الصباح حتَّى ساعة متأخِّرة من اليوم. يظلُّ يدورُ ويدورُ بين طاولات الطعام ملبيّاً طلبات الزبائن التي لا تنقطع حتَّى يسقط كميِّتٍ على فراشه في نهاية اليوم.

ذات صباح جلس على باب الجامع، بعد انقضاء صلاة الفجر. فكرةٌ مجنونةٌ كانت تلفُّ وتدورُ في رأسه منذُ شهور طويلة. حاول صرفها من تفكيره لكنَّها كانت عصيَّةً على الانصراف. بعد بزوع نور الفجر الباهت انطلق نحو قسم شرطة الدقي، الحيّ الذي يقعُ فيه المتحف الذي تعرّض للسرقة. سيعترف بكل شيء. سيحكي لهم ما حدث بالضبط. سيعترف بسرقته اللوحة. سيذكر كل التفاصيل، نعم، كل التفاصيل. سيكفّر عن ذنبه، وفي المقابل ستكون مطالبه قليلة في حال أرادوا أن يكافئوه. لا يريد مالاً بل مجرد كشك صغير يبيع فيه الشاي والجرائد والمجلات وقليلاً من الكتب وعلب السجائر وبعض المرطبات ولعب الأطفال. سيحاول أن يعيش نظيفاً كبقيّة الرجال المحترمين، أن يعيش بسلام وكفى. الغريب أنّه البارحة حلم في نومه بمثل هذه الأمور كلّها. حَلُمَ أنّه التقى مأمور القسم. كان بشوشاً خلافاً لرؤساء أقسام الشرطة المعروف عنهم الغِلظة والشّدة والتعامل الخشن. استقبله بابتسامة واسعة. استمع له جيداً. طلب له كوباً من الشاي الساخن وشاركه تدخين السجائر. وَعده بتنفيذ كل مطالبه، وأخبره بأنها مطالب مشروعة لا غبار عليها، بل يستحقها نظير أمانته وضميره الحي في سبيل استرجاع إرث وطني من حق الناس كلهم، ووعده أيضاً بأن الكشك سيحرص أن يكون قريباً من القسم، وأنّه سيكون تحت حمايته الشخصيّة، ولن يمسّه أحد بسوء، وفوق هذا

سيمسح سجله الملطخ بالسواد وسيطويه للأبد. شعر بفرح غامر وراحة داخلية تعتمل في نفسه لم يشعر بها منذ زمن طويل، منذ متى؟ منذ أيام نجع حمادي حيث سنوات الطفولة والبراءة. لكنه صحا من نومه، وأدرك أنّه كان حلماً، مجرد حلم ليس إلا. لكنه رغم ذلك استشعر سلاماً داخلياً وتفاؤلاً لا يعرف كيف تلبّسه.

بمثل هذه الأفكار، قادته قدماه إلى مركز الشرطة. وقبل وصوله القسم مرَّ على كشك سجائر ليشتري علبة دخان كليوباترا. لا يزال الوقت مبكراً قليلاً. سيدخن السجائر ويشرب الشاي ريثما يحضر المسؤول عن القِسم.

طلبَ من البائع علبة السجائر وكوباً من الشاي. كانت هناك مجموعة من الجرائد المفرودة على طاولة الكشك. طالع فيها بعينين زائغتين، ولكنْ تنبهتْ فجأةً كلُّ حواسِّه حينما قرأ العنوان البارز بالخط الأحمر على الصفحة الأولى لإحدى الصحف:

مقتلُ محسن الرمَّال الذي يُعتقدُ أنَّه أحدُ سماسرةِ بيعِ الآثارِ واللَّوحاتِ المنهوبةِ من المتاحفِ المصريَّةِ في جريمةِ قتلٍ غامضة

تجمَّدتْ أطرافه، وثَقل لسانه، وغامت عيناه. ابتعد مسرعاً عن الكشك، بينما كان البائع يصرخ عليه:

ـ السجائر يا أستاذ!

لكنَّه لم يكن يسمعه، بل غادر المكان، وغاص في الزّحام.

(٤٣)

القاهرة، ١٠/١٩٧٩

بعد مرور عامين على السرقة:

خبر صحفي

عودة لوحة "زهور الخشخاش" المسروقة للرسام العالمي فان غوخ إلى متحف محمد محمود خليل في ظروف وصفت بالغريبة والغامضة.

(٤٤)

القاهرة، ١٥/٦/١٩٨٨

بعد مرور تسع سنوات:

مقالة للكاتب الكبير يوسف إدريس في صحيفة الأهرام المصرية أثارت ضجة كبرى، ويؤكد فيها أن لوحة الرسام العالمي فان غوخ "زهور الخشخاش" الموجودة في متحف محمد محمود خليل زائفة، وأنَّ اللوحة الحقيقية خرجت من مصر بعد سرقتها مباشرة من المتحف عام ١٩٧٧!

(٤٥)

مكَّة المكرَّمة، ٢٩/٨/٢٠٠٣

خبرٌ صحفيٌّ

... عثر مواطنٌ سعوديٌّ يُدعى ح. د. على لوحةٍ نادرة للفنان العالمي الهولندي فان غوخ. هذه اللَّوحة ربما تكون لوحة "أزهار الخشخاش" الشهيرة في الأوساط العالميَّة باللَّوحة الضائعة. ويُقال أنَّ تاريخها يعود إلى ما قبل ١٠، وقد اشتراها المواطن ح. د. من خراج خردة المعيصم في مكَّة المكرَّمة. وأوضح المواطن أنَّه اكتشف توقيع الفنان فان غوخ على اللَّوحة، وقد كان موجوداً عليها بشكل غير واضح تماماً. وقال خبراء إنَّ هذه اللَّوحةَ واحدةٌ من بين ٢٠٠ لوحة فُقدت في أواخر حياة الفنان عام ١٨٩٠. الجدير بالذكر أنَّ أخا الفنان فان غوخ المُسمَّى ثيو باعها بمبلغ ٣٠ فرنكاً فرنسيّاً بعد وفاته لتغطية تكاليف الجنازة.

(٤٦)

القاهرة، ٢/٩/٢٠٠٣

وسائل الإعلام المصريَّة تؤكد أن اللوحة الأصليّة "زهور الخشخاش" للفنان العالمي فان غوخ لا تزال معروضة للزوّار في متحف محمد محمود خليل!

(٤٧)

مكَّة المكرَّمة، ٥/٩/٢٠٠٣

بعد مرور أسبوع:

خبرٌ صحفيٌّ

باعَ المواطنُ السعوديُّ ح. د. لوحةً عالمية شهيرة قيل أنها ربما تكون لوحة فان غوخ المسمَّاة "أزهار الخشخاش" لمشترٍ خليجيٍّ بمبلغ ثلاثة ملايين دولار.

(٤٨)

القاهرة، ٢٢/٨/٢٠١٠

بعد مرور سبع سنوات:

خبرٌ صحفيٌّ

لوحةُ "زهور الخشخاش" لفان غوخ تُسرق للمرَّة الثانية من متحف محمد محمود خليل في القاهرة في عمليَّة سرقة غامضة لم تُكشف تفاصيلها حتَّى الآن!

(٤٩)

مليادير مصري يُعلن تبرّعه بمكافأة ماليّة تصل إلى ٢٠٠ ألف دولار تُمنح لمن يقدّم معلومات موثقّة من شأنها أن تساعد في العثور على اللوحة المفقودة!

(٥٠)

عنوان تقرير إعلاميّ نُشر بعد حادثة السرقة:
أحدُ الصحافيين يقول: تسلَّلتُ إلى المتحف ولم يرنِي أحدٌ!

(٥١)

القاهرة، ٢٢/٨/٢٠١٠

خبر صحفي

تحفَّظتْ سلطاتُ مطار القاهرة الدوليِّ على شابٍّ وشابَّةٍ إيطاليّ الجنسيَّة كانت بحوزتهما لوحةُ "زهور الخشخاش" لفان غوخ.

(٥٢)

القاهرة، ٢٣/٨/٢٠١٠

خبر صحفي

أعلن مسؤولٌ رفيعٌ في وزارة الثقافة المصريَّة أنَّه أصدر قراراً بوقف الزيارة في متحف محمد محمود خليل حتى انتهاء التحقيقات الخاصَّة بواقعة سرقة لوحة "زهرة الخشخاش" من المتحف أمس السبت، كما قرَّر الوزير تشكيل لجنة فنيَّة للتفتيش، ومراجعة منظومة الأمن الداخلي للمتحف عموماً، وإعداد تقرير يُعرض على السيد الوزير مباشرة خلال ٤٨ ساعة، صرَّح بذلك مستشارُ وزير الثقافة للشؤون القانونيَّة.

كما أصدر الوزيرُ قراراً عاجلاً – اليوم – بإجراء تحقيقٍ إداريٍّ مع كل المسؤولين في متحف محمد محمود خليل، ومع قيادات قطاع الفنون التشكيليَّة في الوزارة، إثر سرقة مجهولين لوحة "زهرة الخشخاش" للفنان فان غوخ من المتحف.

ومن الفور أجريت اتصالات عاجلة مع الأجهزة الأمنيَّة لاتِّخاذ الإجراءات اللازمة في منافذ البلاد الجويَّة والبحريَّة والبريَّة كافَّة لمنع تسرُّب اللَّوحة خارج البلاد، وقد بدأت الأجهزةُ الأمنيَّةُ إجراء التحرِّيات اللازمة، إذ يتابع السيّدُ

الوزيرُ الموقف لحظةَ بلحظةٍ مع الأجهزة المعنيَّة كافَّة وعلى أعلى المستويات.

وقد صدر عن المكتب الإعلاميِّ لوزارة الثقافة بيانٌ يؤكِّدُ تمكُّن أجهزة الأمن المصريَّة من إحباط محاولة تهريب اللَّوحة بعد ساعات قليلة من سرقتها من متحف محمد محمود خليل، وتمكُّن الأجهزة الأمنيَّة في مطار القاهرة من ضبط اللَّوحة بحوزة شابٍّ إيطاليٍّ حاول تهريبها إلى الخارج.

لكن ما لبث أن صدر بيانٌ آخر ينفي العثور على اللَّوحة؛ إذ صرَّح مصدرٌ مسؤولٌ في وزارة الثقافة بأنَّ المعلومات التي ذُكرت أخيراً عن استعادة لوحة "زهرة الخشخاش" لفان غوخ وردت من رئيس قطاع الفنون التشكيليَّة نفسه، وأنَّه أبلغه بها في اتِّصالٍ تليفونيٍّ، ولكن اتَّضح أنَّ المعلومات "غير دقيقة، ولم تتأكَّد بعد، وما زالت الإجراءاتُ مستمرةً لمعرفة ملابسات الحادث لاستعادة اللَّوحة المسروقة"، وفق البيان.

يُذكر أنَّ قيمة اللَّوحة الماديَّة تُقدَّر بأكثر من ٥٠ مليون دولار، لكن المتخصِّصين أكَّدوا أنَّها تنتمي إلى تلك الإبداعات التي لا تُقدَّر بثمن في التراث العالمي، إذ يُعتقد أنَّ فان غوخ رسمها عام ١٨٨٧ قبل ٣ سنوات من مقتله بطلقٍ ناريٍّ.

وأثارت اللَّوحة نفسها، "زهرة الخشخاش"، ضجةً كبيرة عام ١٩٨٨، حين أعلن الكاتبُ المصريُّ الراحلُ يوسف إدريس في صحيفة الأهرام الرَّسميَّة أنَّ اللَّوحة الموجودة في

المتحف نسخة مزيَّفة، وأن الأصليَّة بِيعت في إحدى كُبرَى صالات المزادات في لندن بمبلغ ٤٣ مليون دولار.

(٥٣)

جزء من تقرير إعلامي مصوّر أُذيع على إحدى القنوات الفضائية:

... المثير في قضايا سرقة اللَّوحات الفنيَّة أنَّ عمليات استعادة الأعمال المسروقة تبقى أكثر غموضاً من عمليَّات السرقة نفسها، فعندما سُرقت لوحة الرسَّام إدوارد مونك "الصرخة" من متحف النرويج الوطنيّ عام ١٩٩٤، تلقَّى المسؤولون عدَّة طلبات للفدية، ولكنَّ الشرطة لمْ تتمكَّن من التأكُّد من أيٍّ منها، وبعد ذلك – بغرابةٍ شديدةٍ – ظهرت اللَّوحة في غرفة فندق بجوار المتحف بعدها بثلاثة أشهر. وفي حادث آخر في باريس عام ١٩٨٥، انتزعت عصابة مسلَّحة سبع لوحات شهيرة، منها واحدةٌ لكلود مونيه، ولم تتم استعادتها جميعاً إلّا في ١٩٩٠، بما في ذلك الحصول على بعض اللَّوحات من اليابان، وبقيت الظروف التي أُعيدت فيها اللَّوحات غير معلنة على الإطلاق.

(٥٤)

القاهرة، ٣١/٨/٢٠١٠

خبرٌ صحفيٌّ

جريدةُ .....

علمتْ جريدةُ ..... من مصدر مطَّلع أنَّ وزير الثقافة تلقَّى اتِّصالاً هاتفيّاً من شخصٍ أجنبيٍّ أخبره بأنَّ لوحةَ "زهرة الخشخاش" الشهيرة، للفنان العالمي فان غوخ، المسروقة في أغسطس ٢٠١٠، من متحف محمد محمود خليل وحرمه، تمَّ العثورُ عليها في لندن، وأنَّها معروضةٌ حاليّاً للبيع سرّاً هناك. وعرض هذا الشخص على وزير الثقافة عودةَ اللَّوحة إلى مصر بشرط أن تدفع وزارة الثقافة أو أيُّ جهة في مصر ثمنها! وهو الأمر الذي رفضه وزيرُ الثقافة الذي أكَّد – في تصريحاتٍ خاصَّةٍ – صحَّة هذه الواقعة، وقال إنَّه لا يعلم من هو الشخص الذي تحدَّث إليه، كما أنَّه طلب منه القدوم إلى مصر للتفاوض بشأن اللَّوحة، لكنَّه لم يتَّصل بعد ذلك، مضيفاً أنَّه لن يقبل أنْ تدفع وزارة الثقافة، أو أيُّ جهة في مصر أموالاً مقابل عودة هذه اللَّوحة التي هي في الأساس مِلكٌ لمصر، ويجب أن تعود بطرق شرعيَّة ويُعاقب مَن سرقها، مضيفاً "وجود اللَّوحة في لندن قد يكون مجرَّد شائعة لا أساس لها من الصحّة".

(٥٥)

القاهرة، السبت ٨/١١/٢٠١٤

بعد مرور أربع سنوات:

خبرٌ صحفيٌّ

نفى مصدرٌ مسؤولٌ في وزارة الثقافة بيعَ لوحةِ "زهرة الخشخاش" المسروقة من متحف محمد محمود خليل منذُ خمس سنوات في مزادٍ علنيٍّ في العاصمة البريطانية لندن. وأكَّد المصدرُ في تصريح لِـ"....." أنَّ اللَّوحة المُباعة في مزادٍ "سوذبي" هي لوحة أُخْرى للفنان نفسه صاحب اللَّوحة المسروقة، وهو الرسَّام الهولندي فان غوخ، وتحمل اسم "خشخاش في زهريَّة"، وتختلف ألوانها بوضوح عن اللَّوحة المسروقة "زهرة الخشخاش".

وكان رجلُ الأعمالِ الصينيّ وانج زونغجون قد اشترى لوحة "خشخاش في زهريَّة" للفنان الهولندي الراحل فينسنت فان غوخ بمبلغ يصل إلى ٦١.٨ مليون دولار، وهو أعلى بكثير من المبلغ المقدَّر لأعلى سعر متوقَّع للَّوحةِ في المزاد العلني.

ووفقاً لموقع "سكاي نيوز" كانت دار "سوذبي" تتوقع بيع اللَّوحة "زهور الخشخاش – طبيعة صامتة" التي رسمها فان غوخ عام ١٨٩٠ بمبلغ يتراوح بين ٣٣ و٥٥

مليون دولار، لكن رئيس شركة "هيواي بروذورز" للسينما دفع هذا المبلغ لقاءَ اللَّوحةِ وسطَ استغرابِ كثيرين، وانتقادِ مواطنين صينيين، كما ذكرتْ صحيفةُ شانغهاي على موقعها على الإنترنت.

وكانت لوحة "زهرة الخشخاش" قد تعرَّضت لسرقةٍ غامضةٍ في ٢٣ أغسطس ٢٠١٠، وقد حُبس مسؤولون كبارٍ على خلفيَّة اختفاء هذه لوحة، منهم وكيل أوّل وزارة الثقافة، ورئيس قطاع الفنون التشكيليَّة، وأربعة مسؤولين آخرين لمدة أربعة أيام على ذمَّة التحقيق، ثمَّ بمعاقبته و١٠ آخرين بالحبس مع الشغل ٣ سنوات، وكفالة ١٠ آلاف جنيه لإيقاف التنفيذ، عقب اتِّهامهم بإهدار المال العام والإهمال، ما تسبَّب في سرقة لوحة "زهرة الخشخاش" البالغ قيمتها ٥٥ مليون دولار من متحف محمد محمود خليل في الدقي، ولم يظهر أيُّ أثرٍ للَّوحة حتَّى الآن.

(٥٦)

لا تزال لوحة "زهور الخشخاش" للرسام العالمي فان غوخ مفقودة حتى تاريخ الانتهاء من كتابة هذه الرواية في ١٣/١٠/٢٠١٧.

المؤلف

البريد الإلكترونيّ للمؤلِّف:

Makboul2000@hotmail.com

'نصّ غنيّ يستحقّ القراءة'

'الحياة'، عن روايته 'طيف الحلاج'

لم يكن حميد يعلم أن اللوحة التي اشتراها بثمن بخس من إحدى أسواق الخردة في مكة ستكسر رتابة حياته!

ينتبه صديقه فيصل إلى أنها قد تكون 'زهور الخشخاش' نفسها، اللوحة المسروقة للفنان الهولندي فان غوخ.

لكن لهذه اللوحة حكايات مُرّة. فمنذ بيعت بثلاثين فرنكاً فرنسياً لتغطية تكاليف دفن صاحبها، إلى أن صارت تساوي الملايين، سُرقت عدة مرات وأُعيدت بطريقة غامضة. وخلال ذلك كله دمّرت حياة كثيرين.

مقبول العلوي روائي وقاص سعودي. صدر له عن دار الساقي: 'فتنة جدّة' (القائمة الطويلة لجائزة 'بوكر' العربية 2011)، 'البدوي الصغير' (جائزة سوق عكاظ 2016)، 'زرياب' (جائزة أفضل رواية لكاتب سعودي، معرض الرياض 2015 - القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد 2016)، 'القبطي' (مجموعة قصصية، جائزة الطيب صالح 2016)، 'طيف الحلاج'.

ISBN 978-614-03-2072-7

9 786140 320727 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

www.daralsaqi.com